

الفصل الثالث

مظاهر تقدم العلوم الإنسانية في مدينة غزة

أولاً: العلوم اللغوية والأدبية

أ. العلوم اللغوية (النحو و البلاغة)

ب. الأدب (النثر و الشعر)

النثر

(١) الرسائل " الديوانية و الإخوانية "

(٢) المقامات

(٣) الوصايا و النصائح

(٤) الخطابة

الشعر

(١) شعر القصور " شعرا المديح "

(٢) شعر الملاحم

(٣) الشعر القصصي "الحكايات"

(٤) شعر الغزل

(٥) شعر الحكم والمواعظ "الشعر التعليمي"

ثانياً : علم التاريخ

ثالثاً : علم الجغرافية

رابعاً : علم الفلسفة

مظاهر تقدم العلوم الإنسانية! في مدينة "غزة"

إن الإسلام كما يحض على تعلم علوم الشريعة يحض على تعلم علوم الحياة الأخرى، ويجعل من واجب المسلم أن يكون قويًا وصحيحًا وقائدًا لغيره من الأمم والشعوب في كل العلوم والفنون. لذلك شهدت مدينة غزة خلال العصر الغزنوي ازدهارًا عظيمًا في العلوم الإنسانية لم تعرف له مثيلًا من قبل. فازدهر الشعر والنثر، ونمت علوم اللغة وفنونها، ونهض التاريخ والجغرافيا، فكانت مآثر علماء غزة في العلوم الإنسانية وغيرها من العلوم برهانًا عمليًا على أن الازدياد في العلم لا يقتصر على علوم الشريعة، وإنما يجب أن يوجد في كل مجال وهذا مصداق أمر الله عز وجل لنبيه وللمسلمين ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^٢.

^١ العلوم الإنسانية: هي تلك العلوم التي تدرس الإنسان في مجتمعه من مختلف نواحيه، وموضوعها يصدر عن الإنسان من أفعال وتقصى حوافز الفعل ومعقاته، ويطلق هذا المصطلح عادة على مجموعة من العلوم عمادها التاريخ والجغرافية. محمود أبو السعود: المنهجية للعلوم السلوكية الإسلامية، بحوث ومناقشات المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي بعنوان (المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية)، الجزء الثاني، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٢م، ص ٤٣.

^٢ طه: (١١٤).

أولاً: العلوم اللغوية والأدبية

أ. العلوم اللغوية^١ (النحو والبلاغة)

كان اهتمام المسلمين بتفسير القرآن الكريم دافعاً لهم بأن يهتموا اهتماماً بالغاً بعلوم اللغة، فكان الأئمة من الصحابة ومن تلاهم من التابعين يحضون على تعلم العربية ورعاية معانيها، إذ هي من الدين بالمكان المعلوم، فيها أنزل الله كتابه المهيمن على سائر كتبه، وبها بلغ رسوله صلى الله عليه وسلم وظائف طاعته وشرائع أمره ونهيه^٢.

فاللغة هي القالب الذي تفرغ فيه الأمة أفكارها ومفاهيمها وثقافتها ومعتقداتها، وبعبارة أخرى هي المرآة التي تعكس في جرس ألفاظها ونغمات تعابيرها وطريقة أدائها خصائص المتكلمين بها، وصفاتهم وملامح شخصيتهم ومعالم تفكيرهم وسمات طبائعهم وعاداتهم^٣.

لم تكن للدولة الغزنوية لغة واحدة، فقد كانت التركية لغة التخاطب بين طائفة الحكام والجند الأتراك باعتبارها لغتهم الأصلية، لكنها لم تكن لغة أدب وثقافة، وكانت الفارسية

١. اللغة نظام من الرموز الصوتية، *واللغة في الاصطلاح علم يعرف به أوضاع الكلمة العربية من حيث تأليف حروفها واشتقاقها ودلالاتها علي معناها، وهل هي مشتركة بين عدة معان أو مختصة بمعنى واحد لا تدل علي غيره، وفائدتها معرفة وجوه الكلام العربي ومراتب فصاحته نثراً ونظماً، مما يعين على فهم كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، *وقد عرفها "ابن حجة الحموى" بقوله: "إن علم اللغة هو البحث عن المعنى الذي وضع له اللفظ. *محمود فهمي حجازي: المدخل إلى علم اللغة، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٧٦م، ص ١١. *أبو بكر الجزائري: العلم والعلماء، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص ٧٢. *ابن حجة الحموى: خزانة الأدب وغاية الأرب، ج ١، ط ٢، بيروت، ١٩٩١م، ص ٢٣.

٢. الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، (د.ت)، ص ١٢.

٣. السيد محمد صديق القنوجي: البلغة في أصول اللغة، تحقيق نذير محمد مكتبي، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ١٩٩٨م، ص ٥.

لغة الحياة اليومية في معظم مناطق الدولة، أما اللغة العربية فقد كانت لغة العلم والثقافة والأدب الرفيع في ذلك العصر، فعلى امتداد الدولة الإسلامية كان كل من أراد أن يكتب علماً تقرأه الناس لجأ إلى اللغة العربية فكتب وألف بها، وكل من أراد أن يلهم بثقافة ذلك العصر يجب أن يتعلم اللغة العربية. وقد فعل ذلك كثيرون من غير الناطقين بها^١، واضطرت اللغات الأخرى إلى أن ينطوى بعضها على نفسه، وأن ينضوى بعضها تحت لواء اللغة العربية، فظلت اللغة العربية بعلومها وفنونها هي طابع ذلك العصر.

لذلك نجد أن الشعراء والكُتّاب والعلماء في تلك الفترة كانوا أكثر ارتباطاً باللغة العربية وآدابها من ذي قبل، واختاروها لغة التأليف لهم بجانب اللغة الفارسية التي كانت تسير معها جنباً إلى جنب^٢. فكانت لغة العلوم الدينية والعلمية والتدوين والترجمة، فهي لغة القرآن والأحاديث^٣.

١. براون: تاريخ الأدب في إيران، ص ١٢٠. محمد الرفاعي: الخلافة العباسية، ص ٢٢. مصطفى الشكعة: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية (كتاب النشر)، ط ٣، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣ م، ص ٧٠٨.
Frye : The Heritage of Persia , London , ١٩٦٢, p٢٥١.

*من الوسائل الهامة للنهوض بالعلوم هو تدوين العلوم المختلفة وخاصة التطبيقية باللغة العربية، بحيث تصبح لغتنا غنية بمؤلفاتها فيها، حيث أن الحاجة ماسة إلى كتب عربية في كل فرع من فروع العلم، ففي حين أن كل لغة من اللغات الحية غنية بكتبها ومؤلفاتها العلمية نجد أن لغتنا العربية تتميز بفقرها المدقع في المؤلفات العلمية. فمن المؤكد أنه إذا لم تنقل هذه العلوم إلى لغتنا بقينا عالمة على غيرنا من الأمم، ليس عالمة في الكشف والإنتاج فقط ولكن عالمة في التلقى والتطوير، وتبقى دائرة العلم محصورة في النفر القليل الذين يستطيعون قراءة الكتب الأجنبية العلمية وفهمها. إن نقل هذه العلوم إلى لغتنا يعيد إليها وإلى أمتنا مجدها العلمي، فالواقع الآن أن العناية الكبرى توجه إلى ترجمة الكتب في الآداب الغربية والذي يطغى على تراثنا الأدبي الذي نعز به، فالأولى أن توجه الهمم وتصرف الجهود إلى الجوانب العلمية التي نفتقدها ونفتقر إليها.

٢. قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام، ص ٦٨١.

٣. ذبيح الله صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران، ص ١٥٣.

وخير دليل على ذلك مدح "البيروني" للغة العربية بحسن أدائها للمعاني لذلك فضلها علي الفارسية، فيقول في ذلك "إن كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها في مآربها... وأنا نفسي قد طبعت على لغة (الخوارزمية) لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب، والزرافة في الأكواب ثم انتقلت إلى العربية والفارسية وأنا في كل واحدة دخيل ولا متكلف والمهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية"^١.

والبيروني هنا لا يعتمد علي الجانب الديني لتبرير تمسكه باللغة العربية، بل هو يبرز الجانب الجمالي في اللغة العربية ويظهر محاسنها مشيراً إلى مرونتها وما أظهرته من مقدرة على استيعاب المفاهيم العلمية عند نقلها من كتب الأقدمين، ويكفي أن نتصفح مؤلفاته لتتأكد من سعة اطلاعه على أسرار اللغة العربية وإلمامه بأخبار العرب وأمثالهم وأشعارهم^٢. ونجد بعض الكتاب الفرس ينصحون باستعمال الكلمات العربية في ثنايا اللغة الفارسية^٣، ومن هؤلاء "عنصر المعالي كيكائوس بن اسكندر بن قابوس بن وشماكير" (ت ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م) صاحب كتاب "قابوسنامه" والذي يقول لابنه كيلانشاه "يجب أن تتمتج الكتابة بشئ من العربية، فإن الفارسية الخالصة كريهة معيبة"^٤.

كل ذلك دفع سلاطين الدولة الغزنوية إلى المزيد من العناية باللغة العربية وآدابها، والدليل على ذلك أن ديوان الرسائل كان يحجر باللغة الفارسية في بادئ الأمر في عهد الوزير "أبي العباس فضل بن أحمد الإسفراييني"^٥ حيث كان يؤثر اللغة الفارسية علي اللغة

Eva Jeremias: Rabita in the Classical Persian Literary Tradition, The Impact of Arabic Logicon Persian, Jerusalem Studies in Arabic and Islam, The Institute of Asian and African Studies , vol. ٢٧, ٢٠٠٢, p ٥٥١.

١. البيروني: الصيمنة، ص ١٢.

٢. محمد سويسى: أدب العلماء في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري، ص ٨٣: ٨٦.

٣. Frye: The Golden Age of Persia, p ٢٣٢.

٤. عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ١٤.

٥. الإسفراييني: هو أبو العباس الفضل بن أحمد" من كبار رجال الدولة الغزنوية، كان أديب وشاعر، وهو أول من تولى الوزارة للسلطان "محمود"، وفي أول أمره كان من كتاب "أبي الحسن فائق بن عبد الله

العربية حتى كسدت سوق البيان وبارت بضاعة الإجابة والإحسان كما قال "العتبي" ^١ ثم صار يحرر باللغة العربية في عهد الوزير "أحمد بن الحسن الميمندي". معنى ذلك أن اللغة العربية قد سادت لأنها لغة القرآن ولغة الدين والإدارة ^٢.

وإذا كان السلطان "محمود" قد أمر بإلغاء اللغة الفارسية من الديوان وإحلال العربية محلها ^٣، فإن اللغة الفارسية بقيت هي لغة الشعر والأدب ^٤. إذا خطا الأدب الفارسي في ذلك العصر خطوة كبيرة نحو التقدم والرقى، وإذا كان السامانيون قد وضعوا الدعامة الوطيدة لإقامة صرح هذا الأدب فإن السلطان "محمود" قد تابع هؤلاء ونجح في تشييد هذا الصرح كما يبدو من تلك الآثار الخالدة التي تركها شعراء ذلك العصر ^٥.

المعروف بفائق الخالص (ت ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) ثم أصبح بعد ذلك صاحب بريد "مرو"، وحين تغلب "سبكتكين" سنة (٣٨٤هـ / ٩٩٤م) على "أبي على سيمجور" و"فائق" اللذان تمردا بخراسان، طلب "محمود" من الأمير "نوح الساماني" أبا العباس الفضل "ليعمل في الوزارة وبقي وزيراً" لمحمود "من سنة (٣٨٤هـ / ٩٩٤م) حتى سنة (٤٠١هـ / ١٠١٠م)، وفي هذه السنة عقب الخلاف الذي وقع بينه وبين "محمود" بسبب قلة الخراج، وحاجة السلطان الملحة إلى المال، ذهب إلى قلعة "غزنة"، وكتب له رسالة سمي نفسه فيها بالمحبوس فانتهر "محمود" الفرصة وصادر أمواله، وظل في تلك القلعة حتي هاجمه الناس، وقتلوه في غيبة "محمود" في الهند سنة (٤٠٤هـ / ١٠١٢م). ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٥٣٨. على الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٧١. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٢٨٢.

^١. العتبي: تاريخ اليميني، ج ٢، ص ١٧٠، ١٧١.

^٢ - John Perry: Iranian Nationality and the Persian Language, translated by michael Hillmann, Washington, ١٩٩٢, p٤١.

^٣. نظام الملك: سياست نامه، ص ٣.

^٤. ذبيح الله صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران، ص ١٥٤.

Sheila Blair: Islamic Inscriptions, Singapore, ١٩٩٨, p٢٤.

^٥. محمد العمادى: خراسان فى العصر الغزنوى، ص ٢٤٦. عبد الحميد الرفاعى: الدولة الغزنوية، ص ٢٩٥.

Lapidus: A History of Islamic Societies, p١١٦.

وتحيا اللغة عموماً بحياة أمرين: بحياة مفرداتها من جهة وتراكيبها وأسلوب التعبير بها من جهة أخرى، وإذا كانت التراكيب لا تتم إلا بقواعد النحو^١، فإن أساليب التعبير لا تتم إلا بالبلاغة^٢. لذلك اهتم العلماء بتدوين البلاغة وتتبع الأساليب وما فيها من جمال لفظي وما فيها من تصرف في طرق أداء العبارة وطرق التعبير كما هي في نفس المتكلم.

باتساع الفتوحات الإسلامية واختلاط العجم بالعرب واندماج بعضهم في بعض، ظهر اللحن في لغتهم وتسربت العجمة إلى لسانهم، فخشى العلماء أن تفسد اللغة وتذمروا مما كانوا يسمعون من اللحن وخصوصاً في قراءة القرآن، وأحسوا بالحاجة إلى ما يصون لغتهم ولسانهم من اللحن والعجمة، فوضعوا علم النحو وتعجلوا في وضعه عناية منهم بالقرآن، وحرصاً على نطقه بلسان عربي مبين^٣. هكذا نشأ علم النحو نتيجة اختلاط العرب بالأعاجم عندما دخل كثير منهم في الإسلام، عندئذ ظهرت الحاجة إلى وضع قواعد تعصم اللغة العربية من الخطأ.

وقديماً كان علماء العربية لا يفرقون في التأليف بين النحو والبلاغة، وقد نال هذان العلمان موضع اهتمام عليّة المثقفين في ذلك العصر، ومن هؤلاء:

١. علم النحو: هو قانون اللغة العربية وميزان تقويمها، وهو علم يتعرف منه أحوال اللفظ المركب من جهة ما يلحقه من التعابير المسماة بالإعراب والبناء وأنواعها من الحركات والحروف ومواضعها ولوازمها وكيفية دخولها في الجمل، لتبين دلالتها على المقصود ودفع اللبس عن سامعها، وأهم سبب لوضع النحو المحافظة على القرآن من أن يلحن الناس فيه. (القلقشندي: صبح الأعشي، ج ١، ص ١٦٧. السكاكي: مفتاح العلوم، تعليق نعيم زرزور، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٧٥. طاش كبري زاده: مفتاح السعادة، ج ١، ص ١٢٠. أبي الطيب اللغوي: مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل، دار الفكر العربي، ١٩٧٤م، ص ٢٣).

٢. البلاغة: هي ضبط طرق الاستعمال للكلام البليغ والتمارين على إفادة التعبير، وهي أنك تخاطب كل إنسان بما يقتضيه حاله، وأن تقدم لكل مقام ما يتطلبه، فإذا كنت في مقام التأكيد أكدت، وإذا كنت في مقام الوصف وصفت وشبهت، وإذا كنت في مقام التجريد جردت. عبد الستار أبو غدة: رب زدني علماً، ص ٨٥.

٣. الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ١١. أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٢٣.

"عمر بن الحسين بن محمد بن الحسين بن عبد الوارث أبو الحسين الفارسي النحوي" (ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) أحد أفراد الدهر وأعيان العلم وأعلام الفضل، أخذ عن خاله "أبي على الفارسي" علوم اللغة العربية، سافر إلى بلاد عديدة حتى وزر للأمير "إسماعيل بن سبكتكين" "بغزنة"، ثم عاد إلى نيسابور ثم إلى مكة، ثم عاد إلى "غزنة"، وأملى بها النحو والأدب، وله تصانيف منها: كتاب "التهجاء"، وكتاب "الشعر"¹.

"أبو الحسن علي بن فضال بن علي بن غالب القيرواني المجاشعي النحوي" (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) ذهب إلى بلاد عدة حتى وصل إلى مدينة "غزنة"، وهناك أقبل عليه أكابر القوم، كان إماماً في اللغة والنحو والسير، له كتاباً في النحو مكون من عدة مجلدات، وهو كتاب "إكسير الذهب في صناعة الأدب"، وكتاب "النكت في القرآن"، وكتاب "البسمة وشرحها"، وكتاب "العوامل والهوامل"، وكتاب "الفصول في معرفة الأصول"، وكتاب "الإشارة في تحسين العبارة"، وكتاب "شرح عنوان الإعراب"، وكتاب "العروض"، وكتاب "معاني الحروف"، وكتاب "الدول في التاريخ"، وكتاب "شجرة الذهب في معرفة أئمة الأدب"، وكتاب "معارف الأدب"، ومن شعره:

وإخوانٍ حسبتهم دروعاً فكانوها ولكن للأعداء

وخلت بهم سهاماً صائباتٍ فكانوها ولكن في فؤادي

وقالوا: قد صفت منا قلوباً لقد صدقوا ولكن عن ودادي²

"أبو نزار الحسن بن أبي الحسن صافي النحوي" (ت ٥٦٨ هـ / ١١٧١ م) المعروف "بملك النحاة"، سافر إلى خراسان وكرمان و"غزنة"، قرأ مذهب الشافعي على "أحمد الأشنهي"، والأصول على "أبي عبد الله القيرواني"، وأصول الفقه على "أبي الفتح بن برهان"

¹. الثعالبي: يتيمة الدهر، ج ٤، ص ٤٤٥: ٤٤٧. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ١٨، ص ١٨٦: ١٨٧.

². ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٢٤. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٢، ص ٢٧٠. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٩٠: ٩٤. البياني: إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق عبد المجيد دياب، مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، ١٩٨٦ م، ص ٢٢٤.

والخلاف على "أسعد الميهني"، والنحو على "أبى الحسن على بن أبى زيد الفصيحى"، برع في النحو حتى صار أنحى أهل طبقته، ومن كتبه: كتاب "معارف الأدب في النحو"، وكتاب "العروض"، وكتاب "شرح معانى الحروف"، وكتاب "الحاوى في النحو"، وكتاب "العمد في النحو"، وكتاب "المقتصد في التصريف"، وكتاب "التذكرة السفرية"، وكتاب "العروض"، وكتاب في الفقه علي مذهب الشافعى، وكتاب "مختصر في أصول الدين"^١.

الخلاصة كان لعلم النحو فوائد جمة لمعرفة اللسان العربى الذى نزل به القرآن الكريم وبينه رسوله صلى الله عليه وسلم للأمة، فمعرفة اللسان العربى واجبة لمعرفة شريعة الله التى وجب معرفتها بها، امثالاً لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^٢.

ب. الأدب^٣

إن للأدب شعره ونثره دوراً مهماً في التعبير عن الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية في أى عصر من العصور، إذ أنه المرآة التى تنعكس عليها أحداث كل عصر، كما أنه المجال لتسجيل الأصول والمبادئ والأفكار السائدة في كل بيئة.

^١. السبكي: طبقات الشافعية، ج ٧، ص ٦٤. الصفدى: الوافي بالوفيات، ج ١٢، ص ٣٧. ابن قاضي شهبة: طبقات الفقهاء الشافعية، ج ١، ص ٣٢٢. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٩٢. محمد الطنطاوى: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ط ٢، دار المعارف، (د.ت)، ص ٢٠٤.

^٢. يوسف: (٢).

^٣. الأدب: لغة مصدر أدب يأدب أدباً إذا ظرف وتهذبت أخلاقه فهو أديب، واصطلاحاً علم يقتدر به صاحبه علي التصرف في وجوه الكلام العربى المنظوم منه والمثور، فيكتب ويخطب ويحدث بعيداً عن الخطأ والخلل فيه، وطريقة تحصيل هذا الفن بعد معرفة اللغة وعلومها من نحو وصرف وبلاغة والإكثار من الجيد من كلام العرب المثور والمنظوم والتعرف في وجوهه كتابة وخطابة. أبو بكر الجزائرى: العلم والعلماء، ص ٧٢.

شهد القرن الرابع الهجري بداية تميز العلم عن الأدب، فقد عَرَفَ هذا العصر عددًا من المؤلفات التي كانت تعكس تخصصًا بدأ يتسع ليشمل كل مجالات المعرفة آنذاك، سواء أكان ذلك في العلوم الدينية والفكرية كالقرآن والحديث والفقه، أم في العلوم التطبيقية والتجريبية كالرياضيات والطب والفلك. وبالنسبة للأدب فهو يشمل كل المعارف الدنيوية المتوفرة لدى الإنسان المثقف، وفي كل المجالات المعرفية والأخلاقية والجمالية، فالأدب هو مجموع النتاج الذي يمدن الإنسان ويجعل منه مثقفًا، ومن الواضح أن هذا المفهوم يشمل ثقافة أدبية واسعة في مجالات اللغة والجغرافية والتاريخ والفلسفة، وعلي ذلك فالأديب يجب أن يأخذ بكل العلوم ليستطيع أن يحقق مفهوم الأدب، وهو مفهوم مرادف لمعني الثقافة كما نعرفها اليوم، وقد تردد هذا المفهوم عند "ابن قتيبة" الذي قال "من أراد أن يكون عالمًا يطلب فنًا واحدًا، ومن أراد أن يكون أديبًا فليتوسع في العلوم".^١

مع ضعف الخلافة العباسية وظهور القوميات الفارسية في شرق الدولة الإسلامية، شرع الفرس يحيون آدابهم القديمة ويكتبونها لا باللغة العربية لغة الدين والأدب الرفيع في الدولة، ولكن بلغتهم الفارسية مكتوب بالحروف العربية التي تأثروا بها. وقد حاولوا نفس هذه المحاولة في العلوم الدينية، ولكنهم عجزوا عن تحقيق ذلك لأن القرآن والحديث وما تفرع منها من علوم تشتمل على الكثير من المصطلحات التي يتعسر عليهم مقابلتها بلغتهم الفارسية، فاضطروا إلى دراسة هذه العلوم في نصوصها العربية دون تغيير، ولا شك أن هذه الحركة أعقبتها إحياء الأدب الفارسي، وكان لابد من أن ينشأ هناك نوعان من الأدب: أدب عربي وأدب فارسي، وقد أخذ هذا الأخير يزدهر وينمو في ظل الدولة الغزنوية.^٢

^١ حسين الصديق: المناظرات في الأدب العربي الإسلامي، ص ١٨.

^٢ حامد حنفى داود: الآداب الإقليمية في العصر العباسي الثاني، القاهرة، مكتبة العرب، ١٩٧٧م، ص ٢٧. محمد محمدى: الأدب الفارسي في أهم أدواره وأشهر أعلامه، ط ٢، طهران، ١٩٩٥م، ص ١٤.

شهد العصر الغزنوي نهضة أدبية واسعة تلك النهضة التي لم يكن لها فيما سبق مثيل، ولعل ذلك نتيجة لأسباب عديدة منها:

١. انتصارات السلطان محمود الحربية وغزواته المختلفة، والتي كانت من الأسباب التي أطلقت ألسنة الشعراء بمدح السلطان "محمود" والثناء عليه، ولم يكن السلطان "محمود" وحده الذى حرك ألسنة الشعراء بانتصاراته الحربية فأبوه من قبل وأخوه نالاً من شعر الشعراء نصيبهما

٢. كان لوفرة الأموال والغنائم التي عاد بها السلطان "محمود" من انتصاراته الأثر في انتشار الترف بحيث صارت "غزنة" قبلة لعدد من الشعراء والعلماء، بالإضافة لوجود طبقة ذواقة للأدب احتضنت الشعراء والأدباء وعلماء اللغة والأدب والنحو، تمثلت في السلاطين والأمراء والوزراء والموسرين من أفراد المجتمع الذين كانوا يتنافسون على احتضان الأدباء والشعراء للاستمتاع بجلساتهم الأدبية^١

٣. كثرة اطلاع الكتّاب والأدباء على الثقافات المختلفة، لوجود المدارس التعليمية والمراكز العلمية والمكتبات التي تساعد على الاطلاع

٤. استخدام الصوفية للنشر والشعر في مؤلفاتهم لإرشاد الناس وهدايتهم^٢

٥. الصراع المذهبي الذى نشب بين الفرق والمذاهب الإسلامية التي انتشرت في العالم الإسلامي، فوجد الأدب مجالاً خصباً لتسجيل المبادئ والأفكار التي كانت تدعو لها كل فرقة من ناحية وتصوير الصراع المذهبي بين هذه الفرق من ناحية أخرى^٣

Ella Marmura: Arabic Literature a Living Heritage, Introduction to Islamic Civilization, U.S.A. ١٩٧٦, p.٢٢.

١. ذبيح الله صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران، ص ١٥٥.

٢. عبد السلام عبد العزيز فهمى: موضوعات النثر الفارسى، ص ١٤. أحمد كمال الدين حلمى: عمر الخيام عصرًا وبيئته ونتاجا، القاهرة، مطبعة الخانجى، ١٩٩٤م، ص ٥٤.

تمايز الأدب وتعددت فنونه وبرز فيه عدد كبير من الشعراء والأدباء الكبار، واشتمل علي حركة أدبية شاملة ازدهرت في مدينة "غزة" خلال العصر الغزنوي. وسوف يعالج البحث النثر وأقسامه وأنواعه في البداية ثم ينتقل إلى الشعر والشعراء.

• النشر ٢

حدث تطور كبير في النثر خلال تلك الفترة والذي أتبعه تعدد وتنوع في أنواعه^٣، حيث تمايز النثر إلى قسمين علمي وفني، فالنثر العلمي: هو ذلك النثر الذي كتبت على منواله المؤلفات العلمية في العلوم المختلفة كالطب والفلك والرياضيات.... ولم يكن هم العلماء في تلك المؤلفات إلا عرض أفكارهم وشرح آرائهم وتقرير الحقائق وإقامة البراهين، فقد كانت خالية من الصنعة التي طغت على النثر الفني. ومن استعراض الكتب العلمية التي ألفت في تلك الفترة يلاحظ أن الإيجاز كان طابعها، وكذلك خلوها من التكرار والمترادفات، وذلك لأن الآراء العلمية النظرية لا تدع مجالاً للتكرار أو التلاعب بالألفاظ، ولا مجال فيها للبديع أو الصنعة، وإن استخدم السجع في بعض الأحيان ففى المقدمات فقط لا في صميم الكتب^٤.

أما النثر الفني: فهو ذلك النثر الذي يرتفع به أصحابه من لغة الحديث العادية ولغة العلم الجافة إلى لغة فيها فن ومهارة، فالفترة محل الدراسة تميزت بالترف والبذخ والذي

١. مجدى عبد المنعم عجمية: الاختلاف حول منزلة السنة وأثره في الشعر الإسلامى عند العرب والفرس، مجلة رسالة المشرق، مج ٥، ع ١٤، ١٩٩٦م، ص ٣٨٥.

٢. النثر: فن جميل فهو لغة العقل وترجمان الفكر، وهو الأسلوب المتبع في التعبير، ويكون النثر لغة مكتوبة أو منطوقة منطويًا على معني وخاضعًا لأصول اللغة. مأمون بن محي الدين الجنان: بديع الزمان بين المقالة والرسالة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م، ص ١٨.

٣. ذبيح الله صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران، ص ١٦٠.

٤. علي الشابى: الأدب الفارسى في العصر الغزنوى، ص ٣٤٩.

انعكس على نفسية الأديب، والتي تحولت إلى البذخ الفني حيث أسرف كُتَّاب تلك الفترة في تزيين كتاباتهم بالسجع والجناس والطباق، كما حرصوا على تضمين كتاباتهم بالشعر والأمثال فشاركوا الشعراء في موضوعات الغزل والمدح والهجاء والوصف، وما كان وقفًا على الشعر طيلة العهود الأدبية السابقة أصبح مشتركًا بين النثر والشعر، وهذا نتيجة مباشرة لتأثير الأدب العربي على الأدب الفارسي^١.

ولع أبناء تلك الفترة بهذا اللون من الكتابة حتي أن بعضهم فضله على الشعر. وكان النثر الفني في تلك الفترة يشمل الرسائل الديوانية والإخوانية والخطابة والقصص والمقامات.

(١). الرسائل "الديوانية والإخوانية"

كانت كتابة الرسائل مجالًا للتمرين على إظهار صور البلاغة وأساليبها، وكانت تلك الرسائل دليلًا على امتلاك المسلمين لخاصية البيان، لذلك استحوذت الرسائل على تفكير كثير من الأدباء فمنحوها العناية الكاملة والزخرف المتعدد من سجع وجناس وطباق^٢. وقد اتفق المشتغلون بالأدب على أن يقسموا الرسائل إلى نوعين:..

الرسائل الديوانية

هي الرسائل التي كانت تكتب بها شئون الدولة كإرشاد من الخليفة إلي والٍ من الولاة، أو توجه إلي حاكم، أو وصف لموقعة، أو تهديد إلي خارج علي الدولة. ولتلك الرسائل أهمية تاريخية كبيرة، وترجع قيمتها التاريخية إلي أنها تسجل الأحداث التاريخية والمواقع الحربية وأسماء الحكام والقواد والقضاة، كما تصور ألوان الحياة السياسية، ومن هنا

١. المرجع السابق، ص ٣٤٧. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه، ص ١٦٦.

٢. مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، ص ١٥.

نعتبر هذا النوع من الرسائل وكأنه وثائق تاريخية تسجل ما لم يتنبه بعض المؤرخين إلى تسجيله من أحداث داخلية وحياة اجتماعية^١.

كانت تلك الرسائل تكتب في ديوان خاص يسمى "ديوان الرسائل" ويرأس هذا الديوان شخص يطلق عليه الرئيس أو صاحب ديوان الرسائل، وهو في الواقع رئيس ديوان الإنشاء السلطانية، ويأتمر بأمره عدد كبير من الموظفين والمحربين المنشئين، الذين كانوا ينعمون بثقة الدولة ويحفظون أسرارها^٢. كان يشترط في صاحب ديوان الرسائل السرية والإلمام باللغة العربية والفارسية، وبالآداب وعلوم الدين والفلسفة والتاريخ^٣.

تنوعت أساليب كتابة الاستهلال والخاتمة بحسب مقام المرسل إليه، فقد وزنوا الألفاظ وقدروها بشكل دقيق، وظهرت أساليب مختلفة في المراسلات ما بين أسلوب وآخر، فكانت هناك فروق في كتابة رسالة عن أخرى^٤.

تولى ديوان الرسائل في العصر الغزنوي نخبة من كبار الأدباء أصحاب الثقافة الواسعة مما أعانهم على تعمق الأفكار وترتيب المعاني بشكل دقيق، وعنوا أيضًا بألفاظهم عناية قد تفوق عنايتهم بمعانيهم، ومن هؤلاء "أحمد حسن الميمندي" و"أبي نصر مشكان" و"أبي الفتح البستي" و"أبي نصر العتبي" وغيرهم الكثير^٥. كان لهؤلاء الكتاب أثر كبير في نشر نوع خاص من الثقافة، ذلك أن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم، حيث كانت معارفهم ودائرة اطلاعهم شاملة، لأنهم بحكم عملهم مضطرون إلى أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم وأن يعرفوا الأدب وعلوم الدين والفلسفة والجغرافيا والتاريخ. وسوف يقتصر حديثنا هنا عن أشهر كتاب الدولة الغزنوية وهم:-

١. مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمداني رائد القصة العربية، ص ٧٧.

٢. عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي، ص ١٩٨٤م، ص ٥٢.

٣. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١، مكتبة الأسرة، ١٩٩٧م، ص ١٨٧، ١٨٩.

٤. مريزن سعيد عسيري: الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، مكة، ١٩٨٥م، ص ٣٨٢.

٥. البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٧، ٦٦، ١٥٢، ١٦٦. هندو شاه: تاريخ فرشته، ص ٢٨. محمد الرفاعي: الخلافة العباسية، ص ٢٠٨.

"أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين بن يوسف البستي" (ت ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م) ^١ أو (٤٠١هـ / ١٠١٠م) ^٢ ينسب إلى مدينة بست التي اكتسبت شهرة في الحياة الثقافية والأدبية، فبعد أن انضمت هذه المدينة إلى الأمير "سبكتكين" دخل البستي في خدمته وأسند الأمير "سبكتكين" له منصب رئيس ديوان الرسائل والذي أطلق عليه البستي "خزينة الأسرار" ^٣. ظل "البستي" يقوم بكتابة الرسائل وتوجيه الكتب أكثر من خمس عشرة سنة في الدولة الغزنوية، ومعنى هذا أن "أبا الفتح" كانت له رسائل سياسية بارعة يخاطب بها الأمراء والحكام بلغة سلسة تمتاز بسهولة الألفاظ ويسرها، وهو أقصي ما يمكن أن تصل إليه براعة الكاتب، لذا نجده يصف نثره وشعره بهذين البيتين:

إذا أحببت أن تحظى بسحر فلا تختار على نظمي ونثرى
فأحسن من نظام الدر نظمي وأنق من نثار الورد نثرى

ومن مقدمة رسالة يقول فيها: "كتبت وقد هبت ريح النصر من مهبها وأشرقت الأرض بنور ربها....". وهناك رسالة كتبها علي لسان السلطان "محمود" إلى "قابوس بن وشماكير" يتشفع فيها للشيخين "أبي نصر" و "أبي سعيد" ابني الشيخ "أبي بكر الإسماعيلي" يقول فيها: "من علم الأمير شمس المعالي... أدام الله عزه الكريم . فكأنما علم الغيث

^١. الثعالبي: يتيمة الدهر، ج ٤، ص ٣٤٧. فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، ترجمة عرفة مصطفى، ج ٤، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨٣م، ص ٢٥٤.

^٢. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٢٨. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٧، ص ١٤٨. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٤٥٧.

^٣. العتبي: تاريخ اليميني، ج ١، ص ٦٨. ميرخواند: روضة الصفا، ص ١٣١.

Bosworth: The Development of Persian Culture under the Early Ghaznavids, p3٦.

^٤. البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ١٩٧. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٢٨٠.

^٥. استاد خليلي: المرجع نفسه والصفحة.

سجّامًا والليث أقدامًا، وذلك لأن المكارم من خصائص معانيه ونتائج مساعيه ومعاليه، غير أن العادة جارية بهذا السيف وإن كان ماضي الفرار....^١.

ويتضح من نثر البستى أنه ماهر في الإنشاء وفي الصناعات البديعية، أما شعره فأكثره مقطوعات يعتمد فيها إلى المعنى الدقيق ويكثر فيها من ذكر الحكم والأمثال^٢. لذلك يعتبر من كبار شعراء عصره، ومن أصحاب اللسانين الفارسي والعربي^٣، ومع أنه نظم ديوانين أحدهما بالفارسية والآخر بالعربية، إلا إن شهرته ترجع إلى أشعاره العربية وما ألفه بها من كتب نثرية، وقد نظم معظم أشعاره العربية في المعارف والتوحيد؛ ومن أشعاره:

أحسن إلى الناس تستبعد قلوبهم	فطالما استعبد الإنسان إحسان
وإن أساء مسيء فليكن لك	في عروض زلتة صفح وغفران
وأشد يد يدك بحبل الله معتصمًا	فإن الركن إن خانتك أركان
من استعان بغير الله في طلب	فإن ناصره عجز وخذلان ^٤
وله أيضًا:	

وثقت بربي وفوضت أمري إليه	وحسبي به من معين
فلا تبتس لصروف الزمان	ودعني فإن يقيني يقيني ^٥

^١. الثعالبي: يتيمة الدهر، ج ٤، ص ٣٤٥.

^٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٧، ص ١٤٧. العتبي: تاريخ اليميني، ج ١، ص ٦٧.

^٣. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٤٥٧.

^٤. سعيد السيد الباجوري: الشعر التعليمي في الأدب الفارسي الإسلامي في عصر الغزنويين والسلاجقة، ص ١٨.

^٥. السبكي: طبقات الشافعية، ج ٥، ص ٢٩٥.

^٦. الثعالبي: المصدر نفسه والجزء، ص ٣٨٢.

وعلى الجمله فشعره ونثره يدلان على رقة ذوقه وسعة ثقافته في فروع العلم المختلفة، والذي ساعده على ذلك مزاويلته الكتابة للسلطين والأمراء واحتكاكه بالأحداث السياسية والمشاكل الاجتماعية، وأكثر ما يتجلي ذلك في أمثاله وحكمه^١. أبو نصر محمد بن عبد الجبار العتبي (ت ٤٣١هـ / ١٠٣٩م) فارق وطنه الرى فى مقتبل شبابه، وذهب إلى خراسان ثم توجه للكتابة للأمير "سبكتكين" مع "أبي الفتح البستي"، يقول عنه "الثعالبي": "هو لمحسن الأدب وبدائع النثر ولطائف النظم ودقائق العلم، كالينبوع للماء، والزند للنار، يرجع معها إلى أصل كريم وخلق عظيم"، له كتاب لطائف الكتاب وغيره من المؤلفات^٢.

ومنهم "أبو نصر بن مشكان" (ت ٤٣١هـ / ١٠٣٩م) تولى رئاسة ديوان الرسائل في عصر السلطان "محمود" وابنه السلطان "مسعود"، كان "أبونصر" أستاذًا في الأدين العربي والفارسي^٣، أطلق عليه معاصروه لقب الشيخ العميد، وتحدث عنه تلميذه "أبو الفضل البيهقي" وقال أنه كان أستاذًا جليلاً وأنه استفاد من علمه وتوجيهاته، وأنه كان آية في كتابة الرسائل السياسية التى كانت توجه من السلطان إلى الخليفة أو من السلطان إلى الملوك الآخرين أو منه إلى حكامه فى الأطراف، وكان ممن تثقفوا على يد السلطان "محمود"^٤.

مؤلفاته تعتبر من أوائل الكتب التى ظهرت فيها صبغة التطور، وقد حاول "أبو نصر" أن يجعل كتابة الرسائل باللغة الفارسية، ولذلك فإن ما كتبه من رسائل يعد من النصوص

١. ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٣، ص ١٦٠. محمد جمال الدين سرور: انقسام الدولة الإسلامية إلى دول مستقلة، ص ٣٧. أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ١، ص ٢٨٦. بدر عبد الرحمن: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى العراق والمشرق الإسلامى، ص ٣٥٥.

٢. الثعالبي: يتيمة الدهر، ج ٤، ص ٤٥٨.

٣. ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٢٣٥. ذبيح الله صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران، ص ١٦١.

٤. البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٧٨.

الهامة لدراسة النثر الفارسي وتطوره، إلا إن معظم تلك الرسائل قد ضاعت وتبددت بحيث لم نثر علي آثار مستقلة تنسب إليه اللهم إلا ما قام "البيهقي" بجمعه من آثار أستاذه وضمه كتابًا باسم "مقامات أبي نصر بن مشكان" غير أن هذا الكتاب أيضًا قد ضاع ولم نعرف عنه إلا اسمه. وقد حفظت لنا بعض الكتب مقتطفات من هذا الكتاب من بينها كتاب "تاريخ البيهقي"^١.

^١. حربي أمين سليمان: النثر الفارسي والتأثير العربي في العصرين الساماني والغزنوي، ص ٤٩.

الرسائل الإخوانية

يقصد بها الرسائل المتبادلة بين طبقات الشعب المختلفة، وغالبًا كان كُتَّاب الرسائل ممن لم يتولوا مناصب رسمية في الدولة بل كانوا من عامة المشتغلين بالأدب، وإن كان ذلك لم يمنع بعض الرسميين من أن يكتبوا رسائل إخوانية. وقد لعبت تلك الرسائل دورًا خطيرًا في المجتمع بما كانت تضم بين دفتيها من نقد نظام فاسد، أو شكاية حاكم ظالم، أو تنفيس عن الكروب التي ينالها الناس من الحكام المستبدين^١.

ازدهرت تلك الرسائل في العصر الغزنوي وتعددت أغراضها، وكانت تكتب نثرًا أو شعرًا على حد سواء، ولكنها في النثر أكثر، وهي تدور حول معاني وجدانية خاصة بالمتراسلين من شوق وعتاب أو شكر ولوم وغير ذلك من الأغراض، وفي أحيان أخرى قد تتناول بحثًا أدبيًا أو جدلاً نظريًا مثل تلك الرسائل المتبادلة بين "البیروني" وأستاذه "أبو نصر منصور بن عراق"، ومن تلك الرسائل رسالة أرسلها "البیروني" عن بعض مسائل في الهندسة، قال فيها: "وصلت المسائل التي قرأتها بكتابك، وذكرت أن ثلثًا منها قد تضمنها كتاب "أبي سهل الكوهي" في البركار التام، وسألتني عملها بالأصول الهندسية والطرق الصناعية، وعمل سائر المسائل المقرونة بها أجبتك إلى ملتمسك، وإن كانت تلك المسائل متفاوتة المراتب في السهولة والصعوبة، وفي ص (٢١) أجوبة المسائل التي سألت الإبانة عنها، على قرب غورها وسهولة مأخذها"^٢.

أما الرسائل الشعرية: وهي تلك الأشعار التي كان الشاعر يرسل بها إلى بعض الشعراء المعاصرين أو إلى بعض أصدقائه، ويتحدث فيها عن أحواله أو يبعث فيها بتحياته إليهم أو يرده على أشعار وصلته منهم أو التي كان يمازح فيها بعض الأشخاص. ومثال ذلك تلك الأشعار التي أرسل بها الشاعر "مسعود سعد سلمان" إلى أصدقائه عمر ومنصور وعطاء، ومن ذلك قوله في رمضان والصيام ما ترجمته:-

^١. مأمون بن محي الدين الجنان: بديع الزمان الهمداني بين المقالة والرسالة، ص ٣٣، ٣٧.

^٢. التوانسي: أبو الريحان البيروني، ص ٢٥.

يا رفاقي يا عمر ويا منصور ويا عطاء، يا من أنتم الثلاثة سماء وهواء وصبا

إن الجوع في شهر رمضان قد جعلني مسكينًا، فهل لديكم خبر عن شهر شوال^١

بالإضافة إلى المراسلات الشعرية بينه وبين الشعراء المعاصرين له ومنهم: الشاعر "محمد بن محمد رشيدى السمرقندى" والذي له عدة مصنفات في الشعر، والذي أرسل بقطعة من الشعر إلى الشاعر "مسعود سعد سلمان" يطلب منه أن يرسل إليه بأشعاره يقول فيها:-

السيد مسعود سعد لو يرى، لا أراه الله من الحوادث غبارًا أو أثرًا

فليسرل إلى بأشعاره التى هى نتيجة كمال طبعه، بدلا من هدية المسافر

وقد أرسل له مسعود سعد سلمان قصيدة يقول فيها:-

أرسل لك بحديثي فليس جائز سوى هذا، فأنت محك ومسئول لذهبنا وحديدنا

ولم يبق لي من المتاع سوى هذا الوجه الأصفر في لون الذهب، والا لما كانت هديتى

لك هى الشعر^٢

كانت الرسائل الإخوانية تصاغ صياغة أنيقة مثقلة بأوجه البلاغة من موازنة وسجع وإستعارة وتورية، مع التضمين والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف والأمثال والشعر والأقوال، مما يدل على مقدرة لغوية وبراعة أدبية وإحاطة بعدد من وجوه المعرفة، وهناك رسالة أرسلها الفقيه الواعظ "أحمشاذ بن عبد السلام الغزنوى" يهنئ بها أحد أكابر "غزة" بميلاد ابنته، يقول فيها "هذا شعيب النبي بابنته صفورًا استأجر موسى كليم الله أعوامًا ودهورًا، وهذا سيد المرسلين بابنته فاطمة أبقي الله نسله إلى يوم الدين، وهذه أم الكتاب سميت الفاتحة وهى لأبواب مناجاة الرحمن فاتحة، وهذه محكمات القرآن بها

^١. طلعت محمد أبو فرحة: مسعود سعد سلمان عصره وبيئته وشعره، ص ٣٠٦.

^٢. المرجع السابق، ص ٢٢٦.

تثبت شرائع الإيمان، وهذه سورة النساء وسميت بهن، وهي من الطوال ولا سورة من القصار سمت بالرجال، علي أن الدنيا بأسرها مؤنثة والملوك من خدامها، والشمس تؤنث وهي من السناء والسنا والضياء والبهاء في تمامها، والنفس تؤنث وبها فضل الناس، والحياة تؤنث وهي أساس الحواس، والعين تؤنث وبها يتوصل إلى الحقائق، والأذن تؤنث وبها يتوصل إلى الدقائق، واليد تؤنث وهي المتصدية لتحجير الانشاء، والعضد تؤنث وبها استقامة سائر الأشياء، والسماء تؤنث وهي ترجى للأمطار، والأرض مؤنث وهي تنتظر لنفحات الأزهار، والفردوس تؤنث وهي مجمع أطيب الثمار وبها وعد الأخيار الأبرار، والعين أعنى الذهب تؤنث ودونها مذلة للنفوس والخمر تؤنث وزعموا أنها مطردة العبوس، والدرع تؤنث وبها تدفع الهلك والقوس تؤنث وبها يحرز الملك^١.

ومن اشتهر بكتابة الرسائل "أبو الفضل أحمد بن الحسن المعروف ببديع الزمان الهمداني" (ت ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م)^٢ والذي بلغت رسائله ٢٣٣ رسالة وأغلبها مكاتبات خاصة بذل في كتابتها جهداً كبيراً، وقد قامت تلك الرسائل مقام القصيدة الشعرية في أغراضها وأهدافها، ومن ثم نهج فيها "بديع الزمان" إلى المدح والهجاء والفخر والثناء والشكوى والعتاب، أما أهم أغراض تلك الرسائل فهو علاج شئون المجتمع وإعلان مشكلات الناس والاسهام في علاجها وكشف عيوب وسلبات الحكام^٣.

ومن التفاصيل التي وصلتنا عن "بديع الزمان" نقف على موهبة عظيمة عانى صاحبها التشرد وقاسى الغربة وسوء الحال^٤، فبعد أن حصل على ثقافة وافرة من اللغة والشعر، وعند بلوغه الثانية والعشرين عام (٣٨٠هـ/ ٩٩٠ م) بدأ يفكر في السفر والترحال^٥.

١. عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر، ج ٢، ص ١٤٧.

٢. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج ٢، ص ١٦١. ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢١٨.

٣. بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، القسم الأول (١. ٢)، ص ٤٣٤. مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمداني، ص ٢٠.

٤. محمد عبده: مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمداني، مؤسسة دار أخبار اليوم، ص (ج، و).

٥. الثعالبي: يتيمة الدهر، ج ٤، ص ٢٩٤. ياقوت الحموي: المصدر نفسه والجزء، ص ١٦٥.

واتسمت رحلاته بالخصوبة والإثارة معاً، حيث توجه من الرى إلى جرجان ثم نيسابور فسجستان إلا إنه لم يلبث أن ضاق به المقام، فتوجه إلى مدينة هراة، وكانت تابعة إنذاك للدولة الغزنوية ثم توجه إلى "غزنة" واتصل بالسلطان "محمود"، وما لبث أن توفي بعد ذلك بفترة قصيرة^١. هكذا ودع الحياة أديب شاب بقي ذكره بآثاره الرائعة، بعد أن أهدى قومه ولغته تراثاً مجيداً تفخر به الأمة، من درر الشعر وجواهر النثر من قصة طريفة أو مقالة بليغة أو شعر رقيق.

ومن أبلغ رسائله ما كتبه إلى الوزير "أبى العباس الإسفرايينى" وزير السلطان "محمود الغزنوى"، ومن بينها رسالة يصف فيها هزيمة الدولة السامانية بباب سرخس، وأخرى وصف فيها فتح بهاطيه بالهند^٢، كما كان "لبدیع الزمان" قصائد في مدح السلطان "محمود"^٣، على أن أشعاره وقصائده تدل على أن صاحبها كان بفطرتة كاتباً وليس شاعراً، أما بالنسبة لرسائله فكان لها أسلوبها وسماتها التي يمكن تلخيصها فيما يلي:-

- كثرة الصور البيانية والمحسنات البديعية إلى حد الإسراف.
- عنايته بانتقاء الألفاظ وتوليد الصور في رقة وتلاحق، كما كان يكثر من اقتباس الشعر غير مكتفٍ بالبيت أو البيتين.
- ظاهرة التضمين واضحة لديه وأكثر ما يكون في المعنى القرآنى والحديث النبوى والأمثال السائدة.
- خروجه بشئ جديد من خلال رسائله، وهو الميل إلى القصص والحكايات على سبيل التمثيل^٤.

^١. ياقوت الحموى: المصدر نفسه والجزء، ص ١٦٢: ١٦٧. العتبى: تاريخ اليمىنى، ج ١، ص ١٥٧.

^٢. عبد الحميد الرفاعى: الدولة الغزنوية، ص ٣٢٨.

^٣. الذهبى: تاريخ الإسلام، ج ٩، ص ٧٤.

^٤. مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذانى، ص ٢١. آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى، ص ٤٠٨، ٤١٢.

و خلاصة القول أن فن كتابة الرسائل الإخوانية قد عظم شأنها منذ أواخر القرن الرابع الهجري، حتي كان الناس يستطيعون أن يعيشوا من هذه الصناعة كما عاش الشعراء قديماً من التكسب بالشعر.

(٢) المقامات^١

لم يقف فضل "بديع الزمان" عند هذا اللون الرفيع من الفكر والإنشاء . وهو كتابة الرسائل . بل أضاف إلى فن الكتابة العربية ثروة جديدة بما أنشأ من مقامات، حاول فيها لأول مرة في تاريخ الكتابة العربية أن يكتب القصة^٢، فهو مبتكر فن المقامات في الأدب العربي^٣.

كانت كلمة "مقامة" قبل "بديع الزمان" تعني العظة أو الخطبة، فلما أطلقها بديع الزمان علي ما أنشأ أصبح معناها "الحوار الممتع"، وتتضمن موضوعات هذه المقامات المناظرات في الدين والمواعظ والأحاجي الشعرية، كما تتضمن أيضاً حيل الشحاذين واللصوص^٤.

تعتبر المقامات عمل فني متكامل، وعناصر وحدته عناصر خاصة نجدها في الشخصيات الرئيسية مثل "عيسى بن هشام" و "أبو الفتح السكندري"، وفي إيقاع البناء

^١. المقامة: في اللغة المجلس والجماعة من الناس، ثم قصد بها ما يكتبه الأدباء من قصص تدور حوادثها حول رجل أديب فقير يجول في البلاد ليحتال بأدبه لكسب رزقه، وهي مأخوذة عن الأدب الفارسي، والغرض من كتابتها إظهار البراعة وتصوير حال طائفة من الأدباء الفقراء. وقد وفق بديع الزمان الهمداني في ذلك، فهو يسمعنا على لسان راويته حكايات قصيرة تتدفق تدفقاً مسرحياً في نثر بارع السجع عما وقع لأحد الأدباء الضارين في الأرض من نوادر شهدها هو بنفسه. (مأمون بن محي الدين: بديع الزمان الهمداني، ص ٦٩. يسرى عبد الغنى: ديوان بديع الزمان الهمداني، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، ص ٥، ١٥. بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٧٩)

^٢. مصطفى الشكعة: المرجع نفسه، ص ١٦.

^٣. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٧، ص ٦٧. ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٣، ص ١٥٠.

^٤. دائرة المعارف الإسلامية، ج ٦، ص ٥٠٧.

الداخلي وفي النهايات التي تبدو مغلقة، ولكنها تؤدي إلى بداية أخرى. كما نجدها في هذا التجريد الخاص، فالمؤلف لا يصف كل شيء، ولكنه يترك مساحة كبيرة لخيال المتلقى لكي يصور بخياله هو الشخصيات والواقع الذي يتحركون فيه، ويكون الوصف هنا بمثابة إشارات دالة وليس قوالب محددة، فهي في الواقع عمل فني متكامل مفتوح إلى ما لا نهاية^١.

ومقامات "بديع الزمان" تعتبر في بعض موضوعاتها من عيون الفكاهة في الكتابة العربية، ولقد أجرى أكثر من محاولة في هذا السبيل وخاصةً أنه أوتي موهبة فذة فريدة في القدرة على الإضحاك، وإن مجرد قراءة مقامة كالبغدادية جدير بأن يخفف عن النفوس ما بها من تشاؤم أو حزن^٢.

خلاصة القول: إن المقامة شبه قصة، تدور حول بطل وهمي يروى أخباره راوية وهمي أيضاً، وبطلها رجل أحكم التحايل، فأخباره تدور حول الكدية والخداع والتمويه، وهي في النهاية ميدان لعرض النكتة وإظهار البراعة كما أنها تعتبر من الوثائق التاريخية التي تعطينا فكرة صريحة عن الحياة الاجتماعية في زمان كاتبها وأحوال العصر الذي عاش فيه.

(٣) الوصايا والنصائح "الحكم والمواعظ"

هناك نوع آخر من أنواع النثر الفارسي يسميه البعض نثر أو أدب الوصايا، وهو الأدب الذي يهدف إلى التعليم بمعناه العام الواسع، أو المتعلق بنوع من العلوم كالنحو والطب

^١. محمد عبده: مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمداني، ص(ز). دائرة المعارف الإسلامية، ج٦، ص٥٠٧.

^٢. يسرى عبد الغنى عبد الله: ديوان بديع الزمان الهمداني، ص٢٣.

^٣. الوصايا والنصائح: جمع وصية ونصيحة، وأغلب الأمر في النصيحة أن تكون من محكوم إلى حاكم ومن مرؤس إلى رئيس، أما الوصية فإنها تكون من الإنسان إلى نده أو إلى من هو بمثابة ابنه، وقد يطلق اللفظان من باب الترادف علي معني واحد هو النصيح والإرشاد والوعظ والتهديب. محمد عبد المنعم خفاجي: دراسات في التصوف الإسلامي، ظلاله في الأدب العربي، ج١، مكتبة القاهرة، (د.ت)، ص١٣٠.

والتاريخ وغير ذلك، أو كان يتناول القضايا التي تتعلق بالحياة اليومية من سلوك وأسلوب للحياة وطرق التعامل بين الناس، كالدعوة إلى تهذيب الأخلاق واكتساب الصفات الحميدة، أو كان يرمى إلى تعليم الناس المسائل التي تتعلق بمذهب معين أو عقيدة أو مبدأ، وتوجيههم إلى وجهات تخدم غرضاً سياسياً أو مذهبياً أو اجتماعياً.

ومن الكتب التي تناولت هذا النوع من الشر كتاب "قابوس نامه" أو كتاب النصيحة الذي ألفه الأميرعنصر المعالي كيكافوس بن اسكندرين قابوس بن وشماكير (ت ٤٧٥هـ / ١٠٨٢م) وهو كتاب الحكمة العملية أو أدب الوصايا^١. وعنصر المعالي هو عاشر الأمراء الزياريين حكم قهستان من سنة (٤٤١هـ / ١٠٤٩م)، وكان على صلة كبيرة بالأسرة الغزنوية، حيث تزوج ابنة السلطان محمود الغزنوي^٢، واشتغل مدة بمنادمة السلطان "مودود بن مسعود" كما اشترك في غزوات الهند، ولم يتوان الأمير في شيخوخته وشبابه عن تكميل نفسه وتزويدها بالمعارف المختلفة، وعندما بلغ الثالثة والستين من عمره جمع ما حصل من معرفة وعلم وما اكتسب من تجارب في كتاب وقدمه إلى ابنه ليعلمه كيف يعيش ويحكم.

دلل الأمير "عنصر المعالي" بكتابه على أنه أب عاقل مجرب حكيم نهج في تربيته لولده نهجاً عملياً واقعياً، ولم يغفل ما كان جارياً في زمانه من عيوب و نقائص اجتماعية، ولم يسير وراء المثاليات النظرية التي لا تغير من واقع الأمر شيئاً، فبصر ابنه بجانبى الخير والشر من حياته، ولم يفرض عليه قسراً الالتزام بطريق بعينه بل ترك له حرية الاختيار.

بدأ "عنصر المعالي" تأليف كتابه سنة (٤٥٧هـ / ١٠٦٤م) وأتمه عام (٤٦٢هـ / ١٠٦٩م)، ويشتمل هذا الكتاب بعد المقدمة على أربعة وأربعين باباً كل منها يعالج موضوعاً خاصاً ويمهد في أغلب الأحيان لموضوع الباب الذى يليه، وتدل أبواب الكتاب دلالة قاطعة على سعة اطلاع مؤلفه وغزارة فضله وتمكنه من شتى أنواع العلوم والمعارف، وقل أن يخلو

^١. ذبيح الله صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران، ص ١٦٣. أربرى: تراث فارس، ص ٢٨٤.

^٢. بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسى، ص ٧٣.

فصل من النصائح والتي بلغت أربع وسبعين نصيحة تقريباً. كذلك يتناول العظات والنصائح الدينية، والتي توجد في أبواب متفرقة منها: باب معرفة الله وباب شكر النعم وباب معرفة حق الوالدين، كما يتناول الحياة اليومية كباب تناول الطعام والضيافة واللعب، بالإضافة لتناول الوظائف والحرف المختلفة كالقضاء والتجارة^١.

وفي منتصف هذه الأبواب كان الكاتب يورد حكايات بلغ عددها إحدى وخمسين حكاية ليوضح بها آراءه ونصائحه، وذلك بأسلوب شيق يدل على تفوق المؤلف في سرد الحكايات والقصص^٢. وبالاطلاع على أبواب الكتاب يخيل للقارئ أن كل باب من أبواب الكتاب كتبه مؤلف ضليع في فنه وليس للأمير "عنصر المعالي" غير الجمع والتنسيق، وذلك لأن الأبواب المتعلقة بالطب والنجوم والهندسة تتطلب من كاتبها أن يكون قد قضى عمره في دراسة موضوعاتها وممارستها.

ولكننا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن مؤلف الكتاب كان أميراً مارس الحكم والسياسة وعكف منذ صباه على تحصيل شتي أنواع الفنون والآداب، ونشأ في أسرة كان من أمرائها الكتاب والشعراء وضمت في رحابها أهل العلم، لذلك يعد هذا الكتاب من الكتب الهامة في النثر الفارسي التي أطلعنا على الكثير من مظاهر التمدن والتحضر والأوضاع الاجتماعية في عصره، بل يمكن اعتباره خير مصدر للتعرف على الكثير من مظاهر الحضارة الإسلامية^٣.

أما من الناحية الفنية الأسلوبية، فهو من أهم الكتب التي يتجلى فيها النثر الفارسي في المرحلة التي يبدو فيها الأثر العربي قوياً واضحاً ويبدو فيها النثر الفارسي سهلاً سلسلاً،

^١. عنصر المعالي: قابوسنامه، ص ٢٠: ٣١.

^٢. بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ٧٤: ٧٥.

^٣. عنصر المعالي: المصدر نفسه، ص ٢١: ٣١. بديع محمد جمعة: المرجع نفسه، ص ٧٧.

وتوجد به الألفاظ والمصطلحات والشواهد الشعرية والنثرية العربية بغير تكلف، وهو ما كان مستعملاً وشائعاً في ذلك العصر^١.

(٤) الخطابة^٢

رسالة نبيلة ومهمة عظيمة تشتمل على السجع المنمق والجميل المرصعة والأساليب التي تثير في النفس المهابة والخوف. والخطابة قسمان: خطابة سياسية تصدر من الخليفة أو الأمير أو القائد العام للجيش وللحث على الزحف، وخطابة دينية تحث على فضيلة من الفضائل، وتدعو إلى اكتساب الأخلاق في أسلوب من الترغيب والترهيب^٣.

ولا شك أن الوعظ شكل من أشكال الخطابة له كل مظاهره من الارتجال والمشافهة وقوة التأثير والحرص على سلامة التعبير، وهو نمط طغى في هذه المرحلة على أنواع الخطابة المختلفة، وقد شاع في خطابة ذلك العصر السجع المعروف لدى أهل الأدب والذي طبع خطباء هذا العصر.

كانت مكانة الخطباء مساوية لمكانة الشعراء، وكانت ملكة الخطابة تعتبر شيئاً آخر مخالفاً للملكة الشعرية إلى درجة أن المؤرخين يذكرون بالإعجاب من يكون إلى جانب الإحسان في الشعر بارع في الرسائل والخطب. وكان هناك من وعاظ وخطباء العصر الغزنوي من يمتلك من روعة البيان وقوة التأثير ما يأسر به القلوب ويمتلك به زمام جمهور المستمعين، ومن هؤلاء الوعاظ الكثرين الذين تم الإشارة إليهم قبل ذلك.

^١ حربي أمين سليمان: الشر الفارسي والتأثير العربي في العصرين الساماني والغزنوي، ص ٥٣.

^٢ الخطابة: كلمة عربية بمعنى الخطاب، وهى الشعر المنشور الذي يحرك العواطف، ويوقظ الشعور ويثير النفوس وهى كالشعر تحتاج إلى الخيال والبلاغة. (أبو زيد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٥٦)

^٣ إبراهيم على أبو الخشب: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ت)، ص ٣٩١، ٣٩٩.

هكذا بلغ الشعر قمة تطوره في تلك الفترة لاتخاذ أسلوبا جديدا هو أسلوب النثر الفنى المتكلف، حيث صب الكتاب أفكارهم في قوالب جميلة من الألفاظ المزخرفة والمحسنات والاستعارات وما شابهها، بالإضافة إلى كثرة الاستشهادات المأخوذة عن النثر العربى.

الشعر^١

تميزت تلك الفترة التي نتحدث عنها بكثرة الشعراء وتعدد آثارهم، والواقع أن تشجيع السلاطين والحكام والوزراء كان السبب الرئيسى الذى ساعد على رواج الشعر، إذ حاول كل حاكم أن يضم إلي بلاطه أكبر عدد ممكن من الشعراء والكتاب، وأخذ يجزل لهم العطاء حتي وصل بعض الشعراء إلي درجة كبيرة من الثراء، وقد سبق الحديث عن ذلك في عوامل الازدهار الثقافى في مدينة "غزة".

تميز شعراء الفرس بأن ضم شعرهم كل ما في جعبتهم من العلوم الإسلامية واصطلاحات التصوف والآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكل علم تعلموه كالفلك والطب، فالشاعر الفارسى كان ناثراً عالماً بأصول الدين وأحكام التصوف والتفسير والتأويل والتأريخ وعلم الكيمياء والرياضيات، وكل ما يمكن الإحاطة به من أنواع المعرفة التى ازدهرت في ظل الإسلام، وبالتالي لا يتيسر فهم ما يقولون من شعر تراحت فيه المصطلحات والإشارات إلا لمن كان راسخ القدم في العلوم الإسلامية^٢.

١. الشعر: هو الكلام الموزون، ويمتاز في صوته الذى يؤدى به، وموسيقاه التي يتضمنها، وتأثيره الذى يحدثه، وخياله الذى يخلق به في الكون، ومعناه الذى يحمله. برويز تاتل خانلري: أوزان الشعر الفارسى، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، مكتبة الأنجلو، ١٩٧٨م، المقدمة. إبراهيم على الخشب: تاريخ الأدب العربى في العصر العباسي الثاني، ص ٧٠.

٢. ذبيح الله صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران، ص ١٥٧. أحمد جاب الله شلبي: التعليم والتربية عند المسلمين، ص ٢١٧.

والشعر الفارسي شعر متعدد الفنون والأنماط ويمكن تقسيمه من حيث قوالبه وأنماطه إلى فنون منها **القصيدة**^١: هي قوام الشعر العربي، أخذها الفرس عن العرب^٢، وهي تتحدث عن موضوعات كثيرة كالمح والهجاء والرثاء والوعظ، وقد تأثر شعراء الفرس تأثيراً كبيراً بالطريقة التي كان ينشد بها العرب قصائدهم، وخاصة قصائد المديح والتي سارت على منوال القصائد العربية، فأخذ الشاعر يبدؤها بالنسيب وذكر الأطلال والرحيل حتى يصل إلى بيت الانتقال ثم ينتقل إلى الموضوع الأصلي وهو المديح^٣.

تعتبر القصيدة هي أهم صور النظم الشعرية، لذلك وضع الفرس لها بعض الخصائص والقواعد التي يسير عليها الشاعر ليصل بمنظومته إلى درجة الجودة، ومن هذه الخصائص أن تكون القصيدة:

مصرعة: أي يراعى الشاعر تقفية مصرعى البيت الأول من قصيدته^٤.

حسن الطالع: أي يكون مطلع القصيدة سهلاً عذب الألفاظ مما يجعل المستمع يميل إلى سماع القصيدة.

حسن التخلص: وهو الخروج من النسيب إلى موضوع القصيدة الرئيسي بطريقة حسنة لطيفة. **حسن الاعتذار:** وفيه يعتذر الشاعر بطريقة لطيفة عن قصور مدحه وعلو مقام مددوحه. **الشريطة:** وهي ختم القصيدة بالدعاء، وفي القصائد الفارسية يدعو الشاعر

^١. القصيدة: تكتب في سطور، كل سطر يتكون من نصفين بيت شعر، ويوجد اتفاق سجع في بداية السطور، كما يوجد اتفاق في آخر بيوت الشعر. إسعاد عبد الهادي قنديل: فنون الشعر الفارسي، ص ٧٧. Morrison: History of Persian Literature from The beginning of The Islamic Period to The Present Day, Brill, ١٩٨١, p٧.

^٢. Lapidus: A History of Islamic Societies, p١٢٧.

^٣. Julie Scott Meisami: Medieval Persian Court Poetry, New Jersey, ١٩٨٧, p٤٠.

^٤. محمد نور الدين عبد المنعم: دراسات في الشعر الفارسي حتى القرن الخامس الهجري، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٧٦م، ص ١٨٧، ١٨٩.

Omar S. Pound: Arabic and Persian Poems in English , p١٥.

لممدوحه بدوام بقائه في شكل شرط، فمثلاً يتمني خلوده طالما استمر طلوع الشمس. وفي القصيدة بيت يسمى بيت القصيد، وهو البيت الذي تبنى عليه القصيدة، وليس من المفروض أن يكون أحسن بيت فيها^١.

المثنوى^٢: من فنون الشعر الشائعة في الفارسية، والتي حاول فيها الفرس التخلص من قيود القافية، إذ أن القافية تكون في جزئي البيت الواحد وتتغير بعد ذلك بتغير الأبيات، استعمل الفرس المثنوى في موضوعات شعرية مختلفة وخاصة في الحكايات والقصص البطولية^٣.

استعمل الفرس هذا الفن من الشعر تخلصاً من قيود القافية التي وضعها العرب، ومازال الفرس ينظمون فيه حتى الآن، أما العرب فلم يهتموا بهذا الفن كثيراً، وخاصة أنهم كانوا قادرين على نظم القصيدة ذات القافية الواحدة وساعدتهم في ذلك اللغة العربية^٤. ويرى البعض أن أول تجربة لهذا اللون من ألوان الشعر هي "شاهنامه الفردوسي"^٥، والبعض الآخر يرى أن المثنوى نوع شعري فارسي قديم، وهو الذي ساعد على تطور الشعر الفارسي^٦.

^١. سعيد نفيسي: تاريخ نظم ونثر در ایران در زبان فارسی، تابایان قرن دهم هجری، تهران، ص ٤٨.

محمد نور الدين: المرجع نفسه، ص ١٨٩.

^٢. المثنوى: هو شعر يبنى على أبيات مستقلة مصرعة، ويشتمل كل بيت على مصراعين متفقين في القافية مستقلين في ذلك عن غيرهما. إسعاد عبد الهادي قنديل: فنون الشعر الفارسي، ص ١١٩.

^٣. إسعاد عبد الهادي قنديل: المرجع نفسه والصفحة.

^٤. محمد نور الدين: المرجع نفسه، ص ٢٥٣.

^٥. أربري: تراث فارس، ص ٢٧٥.

^٦. محمد نور الدين: المرجع نفسه والصفحة.

الرباعي^١: يعتبر من ألوان الشعر الفارسي الذي له وزن فارسي بحت، انتشر هذا اللون بين جميع شعراء الفرس^٢، وسمى رباعي لأنه يتكون من أربع شطرات، وهو من الأنواع المهمة في الشعر الفارسي ومن أصعبها أيضًا، وذلك لأن الشاعر مقيد بوزن خاص، ولا بد أن تتضمن تلك الشطرات الأربعة فكرة معينة ومعنى جديد^٣.

القطعة: هي قطعة من قصيدة كاملة انفصلت عنها لسبب من الأسباب، كما قد تكون وحدة قائمة بذاتها، أنشأها الشاعر من البداية ليصوغ منها غرضًا من الأغراض، وتركها كما هي دون إضافة أبيات أخرى إليها. ولا تقل القطعة عن بيتين، ومن الشعراء الذين أنشدوا قطع فارسية، بالإضافة إلى قصائدهم الطويلة، الشاعر "سنائي الغزنوي"، ومن أمثال القطع التي قالها ما ترجمته: **العالم لا يسكر والعقل لا يشرب الخمر**

لأن العالم لا يخطو بقدمه في طريق المهانة أبدًا.

فعندما تشربها يبدو أمامك الناي كشجرة سرو.

وتبدو شجرة السرو كالناي^٤؛

المسمط^٥: استخدم الشعراء هذا الفن من فنون الشعر، حيث كان الشاعر يقسم قصيدته إلى أقسام كل قسم يتكون من أربعة أو خمسة أو ستة مصاريع، ولكل المصاريع

^١ الرباعي: عبارة عن بيتين من الشعر يشتملان على أربعة مصاريع تجرى على وزن واحد وقافية واحدة، غير أن المصراع الثالث قد يتفق مع المصاريع الثلاثة الأخرى في القافية، وقد لا يتفق معها، فلا يشترط في الرباعي إلا تفتية المصاريع الأول والثاني والرابع. إسعاد عبد الهادي قنديل: فنون الشعر الفارسي، ص ١٦٧. محمد محمدى: الأدب الفارسي في أهم أدواره وأشهر أعلامه، ص ١٧٨.

^٢ أربري: تراث فارس، ص ٢٧٧.

^٣ محمد نور الدين: دراسات في الشعر الفارسي، ص ٢٣٦.

^٤ المرجع السابق، ص ١٩٣.

^٥ المسمط: عبارة عن مصطلح عام يشمل جميع أنواع القصائد المركبة ويشبه ما عرف عن المغاربة بالموشح، حيث يقسم الشاعر قصيدته برمتها والغالب فيه أن يقسم البيت إلى أجزاء أو أشطر تتفق أوائلها

قافية واحدة، ماعدا المصراع الأخير، والمصاريح الأخيرة لكل قسم تتفق مع القافية ومع غيرها حتى آخر القافية لعدد المصاريح التي يتكون منها المربع أو الخمس أو المسدس^١.

الخلاصة أن الشعر الفارسي كان متعدد الأنواع، متنوع الأغراض والموضوعات، وإذا أردنا أن نتخذ من موضوعه أساساً لتقسيمه، نجد أنه ينقسم إلى الموضوعات التالية:

(١) شعر القصور "شعر المديح"

هو ذلك النوع من الشعر الذي يقوم على المديح وأشعار المناسبات كالتهناني والمراثي والوصف. ويعد هذا النوع من أهم أنواع الشعر الفارسي، وقد بلغ هذا النوع أوج نضجه واكتماله في العصر الغزنوي^٢، وذلك يرجع إلى رعاية الأمراء والسلاطين للشعراء، فكان الشعراء في مقابل ذلك يقومون بنظم القصائد في مدح السلاطين والأمراء، كما كانوا مكلفين بنظم التهناني في المواسم والأعياد والانتصارات ووصف المعارك والجيوش وميادين القتال في أوقات الحروب، ووصف الاحتفالات ومجالس اللهو والشراب ومظاهر الطبيعة في أوقات السلم^٣.

هذا النوع من أنواع الشعر نال اهتمام كبير في تلك الفترة، وذلك لما فيه من علاقة نفعية بين المادح والمدوح، فالمداح ينال العطاء الجزيل من المدوح، والمدوح ينال الشهرة والمجد بفضل شعر المادح^٤. وظهر في مدينة "غزنة" مجموعة من كبار الشعراء المادحين الذين خلدوا بمدائحهم أمجاد الدولة الغزنوية ومن هؤلاء:

في الروه، كما تتفق أواخرها مع نظائرها في القصيدة برمتها والغالب فيه أن يقسم البيت إلى أربعة أجزاء، ثلاثة منها مسجعة والأخير جزء التقفية. علي الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٢٣٩.

١. محمد نور الدين: المرجع نفسه، ص ٢٠٤.

٢. Julie Scott Meisami: Medieval Persian Court Poetry, ٤١، ٤٠.

٣. إسعاد عبد الهادي قنديل: فنون الشعر الفارسي، ص ٣٦.

Claud Field: Perisan Literature, p٩٥.

٤. Julie Scott Meisami: Medieval Persian Court Poetry, p١٠.

"الفرخي"

هو "أبو الحسن علي بن الجलग السجستاني الفرخي" (ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م) كان أكثر شعراء "غزنة" إبداعاً وتفناً، انتقل إلى بلاط السلطان "محمود الغزنوي" حين سمع عن كرمه وعنايته بالشعراء، فعلا شأنه وأصبح من أرفع شعراء البلاط^١.

قام بتأليف كتاب في البلاغة أسماه "ترجمان البلاغة"، يعتبر من النماذج الأولى لفن البلاغة في اللغة الفارسية^٢. كان شاعراً غنائياً^٣ لأنه وقف شعره على المدح والغزل والطبيعة، وكان مثلاً يحتذيه الشعراء من بعده في ميدان الغزل اللطيف والعواطف الرقيقة وأوصاف الطبيعة الجميلة والعشاق والممدوحين، فقد كان له مهارة فائقة في اختيار اللفظ والمعنى والتشبيهات اللطيفة، وكان يتجنب التكلف والتعقيد وتغلب على أشعاره البساطة^٤.

^١ - علي الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٢٤٨. محمد عبد الحميد الحمد: حياة البيروني، ص ٤٦. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٥٣٤.

Bosworth: The Development of Persian Culture under the Early Ghaznavids, p ٣٨.

^٢ ذبيح الله صفا: المرجع نفسه والجزء، ص ٥٣٩. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٣١٨.

Arberry: Classical Persian Literature, p ٥٨.

^٣ عرف الشعر الغنائي بأنه التعبير عن الإحساس الشخصي بأوسع معانيه، الإحساس في هدوئه وعنفه وفي بساطته وعمقه وفي رفته وعظمته، وينبغي أن لا نحصر هذا الإحساس الشخصي في المجال الرومانسي، بل يجب أن يعبر عن روح الشعب الذي يقاسمه كثيراً من الجوانب، ويمكن حصر موضوعاته ببساطة في إحساس الفرد بالأشياء في نفسه ومن حوله حياة وموتاً حباً وكرهاً مدحاً وهجاءً وفخراً تفاعلاً وتشاؤماً، وفي الأسرة والوطن والطبيعة. علي الشابي: المرجع نفسه، ص ١٨٧.

^٤ محمد محمددي: الأدب الفارسي، ص ١٨٢.

كانت أعظم قصائد "الفرخي" تلك التي أنشدها في عهد الغزنويين يمدح فيها السلطان "محمود" وأبنائه "محمدًا" و"مسعودًا"، وأخاه الأمير "محمد" ووزرائه وندماءه^١، ومنها في مدح الأمير "محمد":.

كان للملوك من الدنيا	أربعة مختارة من الخصال
ضربة الصولجان، ووفرة الطعام،	وقوة الطعان، وخفة النضال
فزاد عليها محمد بن محمود أربعة	أخرى بتوفيق ذي الجلال
حفظ العهود، وصون الحقوق،	ورعاية الدين، وصدق المقال ^٢

وله كذلك قصيدة في رثاء السلطان "محمود" تعتبر من عيون الشعر الفارسي، ترجمها "البيروني" إلى العربية بشعر فصيح فُقد، وهذه ترجمة حديثة لها:.

لم تعد مدينة "غزة" كعهدي لها من عام مضي، فهاذا هذا العام

أرى ربوعًا حافلة بالنواح والعويل

أرى شوارعها مليئة بالناس وأبواب الحوانيت مغلقة

وأرى قصورها مهجورة من ذوي المهابة

إن الملك محمود يتناثر في جوف الثري كالمسك مهجورًا، آه.... وبالفجعة

أن أري خلاء منه قصر محمود ذلك المنزل الحافل بالنقش والتهاويل

قم أيها الملك، فكل قد سبق للعرض، ألفان من الفيلة، من وراء قصرك وحديقتك

إنك علي سفر طويل، أمامك هذا العام، سفر لا حد له ولا ساحل^١

^١ ذبيح الله صفا: المرجع نفسه والجزء، ص ٥٣٨. استاد خليل: المرجع نفسه، ص ٧٩، ١١٨، ١٥٧.

٣١٥.

^٢ رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ٤٥.

له أيضاً ديوان يحتوى على مائتين وثلاث عشرة قصيدة، ومن أروع قصائده إلى جانب ما ذكرناه قصيدة "فتح سومنات"^٢.

"العنصرى"

هو "أبو القاسم الحسن بن أحمد العنصرى" (ت ٤٣١هـ / ١٠٣٩م) أستاذ فن القصيدة الأول في الشعر الفارسي، وشاعر السلطان "محمود" الذي وقف شعره علي مدحه ووصف حملاته وغزواته فخلد بذلك ذكر هذا السلطان^٣. ويعتبر من كبار شعراء المديح في العصر الغزنوي^٤. ولد ببلخ ثم تركها وذهب إلى غزنة وأصبح نديماً للسلطان "محمود"، وظل ينظم أشعاراً في مدح السلطان محمود وأخيه الأمير نصر وابنه مسعود، حتى أن السلطان محمود منحه لقب "ملك الشعراء" في بلاطه، ومن ثم جرى العرف بين الشعراء على أن يعرضوا عليه شعرهم حتى يميز بين رديئه وجيده قبل أن ينشده الشاعر في حضرة السلطان^٥.

كان من أصحاب اللسانين الفارسي والعربي، وقصائده كلها تدل علي مدي اتساع معرفته اللغوية بهذين اللسانين، كما كان أول من روج قصائد المناظرة علي طريقة السؤال والجواب. ترك "العنصرى" ديواناً يتكون من ثلاثة آلاف بيت حافلاً بالقصائد في مدح

^١. محمد عبد الحميد الحمد: حياة البيروني، ص ٤٧.

^٢. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٩٠. أركين رحمة الله يف. عبد الله يولداشيف: الحضارة الإسلامية في تاجيكستان، ص ٨٩.

^٣. إسعاد عبد الهادي قنديل: فنون الشعر الفارسي، ص ٨٠. محمد محمدي: الأدب الفارسي، ص ١٨٢.

^٤. Claud Field: Persian Literature, pp ٩٥, ٩٦.

^٥. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در ایران، جلد أول، ص ٥٥٩. رضا زاده شفق: المرجع نفسه، ص ٤١. Bosworth: The Development of Persian Culture under the Early Ghaznavids, p ٣٨.

^٦. على الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٢٤٠. استاد خليلي: المرجع نفسه، ص ٣١٠.

Julie Scott Meisami: Medieval Persian Court Poetry, p ١١.

Claud Field: Op, cit, p ٩٦.

السلطان "محمود" وقواده^١، وله قصيدة سجل فيها غزواته يزيد عدد أبياتها على مائة وثمانين بيتاً^٢. وفيما يلي أبيات "للعنصرى" في مدح السلطان "محمود":

أنت محمود العمل ومحمود الاسم، وأنت محمود المثل ومحمود الروح

. الزمان قلب وأنت له الضمير، والعظمة جسد وأنت لها الروح

. الشيء الذي لا تملكه لا يكون إلا عيباً، والشيء الذي لا تعرفه لا يكون إلا غيباً

. لست أرضياً ولكنك افتخار للأرض ولست زمنياً ولكنك افتخار للزمان

. ولست فلکاً ولكنك مرشد للفلک، ولست دنيوياً ولكنك سيد الدنيا

. أنت الجمال لدولة الأكاسرة، وأنت الأمان لأمة العرب^٣

كانت طريقة "العنصرى" في قصائده غالباً بأن يبدأ القصيدة بمقدمة في وصف الطبيعة، ثم يشرع في الغزل وبعد ذلك ينتقل إلى مدح الممدوح، ومن هنا تشتبك إفادته للفن والتاريخ معاً، حيث يجد فيها المؤرخ حقائقه وتفصيلاته، كما يجد فيها الفنان دقة المعنى ورقته وجمال الأسلوب وبساطته، وحسن تراكيبه اللغوية ومهارته في ملائمة العبارات، وبعمق تفكيره وسعة خياله وقدرته على بيان المضامين والمعاني الجديدة، وانتهاجه منطقاً شعرياً خاصاً^٤.

"منو جهري"

هو "أبو النجم أحمد بن قوس بن أحمد المنو جهري الدامغانى" (ت ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م)، يعتبر أحد أعمدة الشعر في العصر الغزنوى، ومع أنه عاصر السلطان "محمود" إلا أنه لم

^١. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در ایران، جلد أول، ص ٥٦١. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٣١٠.

^٢. إسعاد عبد الهادي قنديل: فنون الشعر الفارسي، ص ٨١، ٨٢.

^٣. المرجع السابق، ص ٣٧١.

^٤. محمد محمدى: الأدب الفارسي، ص ١٨٢. على الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوى، ص ٢٤١.

يعد في زمرة شعراء عصره، لأنه قدم إلى "غزنة" سنة (٤٢٦هـ/١٠٣٤م)، وعلى ذلك يعد "منوجهرى" شاعرًا معروفًا في عصر السلطان "مسعود" لأن أغلب قصائده في مدح هذا السلطان ووزرائه وأمراء دولته^١.

حين اعتمر الرحيل إلى "غزنة" كانت شهرته قد سبقته، فقد أراد السلطان "مسعود" أن يستقدمه ليشركه في الحركة الشعرية التي غمرت بلاطه، والذي دفعه لذلك مدائح "منوجهرى" في السلطان "مسعود" والتي تعتبر من غرر ما قيل فيه، ومنها قصيدته "در مدح سلطان مسعود غزنوى"، والتي مطلعها ما ترجمته:-

يا عظيم خراسان وشاهنشاه الطرق يا من يدين له الملوك بالطاعة

قضي "منوجهرى" أعذب فترات حياته وأكثرها خصبًا وإنتاجًا في "غزنة"، وقد ساعده على ذلك رعاية السلطان الوافرة، والتنافس الشعرى الذي غمر بلاطه^٢، وطبيعة "غزنة" الساحرة حيث أنها تميزت بكثرة الحدايق والتي تأثر بها الشعراء في إنتاجهم الأدبي^٣.

ولمنوجهرى ديوان يحتوى على سبع وخمسين قصيدة وأحد عشر مسمطًا وعشرين قطعة وستة رباعى^٤، وهو مبتكر النمط الشعرى المعروف بالمسمط، ولم يقف عند تجزيته الغالبة بل تجاوزها في كثير منه إلى جزئين آخرين لتصير ستة أجزاء الأخير منها جزء التقفيه، وكان ولعه بالمسمط شديدًا فقد نظم على منواله إحدى عشرة قصيدة تختلف تجزئتها كمًا، وظل المسمط نمطًا يحتذيه الشعراء من بعده^٥.

يعتبر شعر منوجهرى خطوة فاصلة بين بساطة الشعر الفارسى في العصر السامانى والعصر الغزنوى وبين تصنع الشعر السلجوقى وتعقيده، كما أنه تبحر في اللغة العربية ولم

١. محمد العادى: خراسان في العصر الغزنوى، ص ٣١٩. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه والجزء، ص ٥٨٢.

٢. على الشابى: الأدب الفارسى في العصر الغزنوى، ص ١٨٦.

٣. استاد خليل: سلطنت غزنويان، ص ٣٥٩.

٤. أركين رحمة الله يف. عبد الله يولداشيف: الحضارة الإسلامية في تاجيكستان، ص ٨٩.

٥. على الشابى: المرجع نفسه، ص ٢٣٩.

يسلك سبيل بعض المعاصرين له من الاقتصار على اقتباس المعنى أو الأسلوب فقط، بل كان يستعمل أحياناً الألفاظ العربية الغريبة والتراكيب النادرة^١.

لم يكن منو جهري ماهر في الشعر فقط، بل كان على معرفة بالعلوم فيذكر في إحدى قصائده أن له معرفة بعلوم الدين والطب والنحو، تلك الثقافة مكنته من استخدام معلوماته التاريخية والعلمية والدينية في تدبيج صورته الشعرية حيث كان يبرز ذلك كله في قصائده^٢.

أما الموضوعات التي استأثرت أغلب ديوانه إن لم يكن كله فهي المدح والطبيعة والانطلاق. الحب والخمر والجمال. وكانت أغلب مدائحه وقفا على السلطان "مسعود" وهي علاوة على طابعها المدحي تمثل وثائق تاريخية هامة، اهتمت بتسجيل حياة السلطان "مسعود" ووقائعه مع السلاجقة بدقة، من هنا تستمد أهميتها ليستفيد منها الأديب والمؤرخ.

ومن شعره في مدح السلطان مسعود ما ترجمته:ـ

.أيها الملك الشهير كالنجمة العالية إلى متى وأنت في القصر، أحضر إلى الحديقة فإن عيد النوروز قد حضر

.البستان يحرق عوده فأحرق أنت الألم، واليامة توقع على الناي فوق أنت على الطنبور

.بفضل علم هذا الملك العادل وفطنته، لا يوجد في ملكه لو كلمة واحدة خافية عنه

.إن نصف الدنيا ملك له ولن يسر إلا إذا أخضع النصف الثاني

.صار الشرق كله له، والمغرب كله سيكون له، فمن كان له الشرق لن يكون المغرب إلا

له

^١.رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ٤٨. استاذ خليلي: المرجع نفسه، ص ٣٢٤.

^٢.ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٥٨٢.

أما بالنسبة للطبيعة فقد احتلت جزءاً كبيراً من ديوانه، فقد أسرته الطبيعة فهام بها ووقف عند وصفها طويلاً، وقد بلغ من دقة الوصف والإطالة فيه ما لم يبلغه أحداً قبله، إذ كان يقف في وصف الربيع عند كل شجرة وكل طير ويصفها جزءاً جزءاً في تشبيهات بديعة، وعلاوة على هذا التدقيق فإنه كان يجسم المناظر الطبيعية تجسماً يضيف عليه من إحساسه الحركة والحياة، ومن ذلك تشبيه للنجس في ساقه الجميلة وبياض خارجه وإصفرار داخله بالخور التي تحمل على رؤوسها أطباقاً فضية عليها كؤوس من الذهب الخالص، فيقول ما ترجمته:-

. فالنرجس يشبه الخور وهى تحمل على رؤوسها أطباقاً فضية وفوق هذه الأطباق كؤوس من الذهب الخالص^١

خلاصة القول أن شعر الطبيعة عند "منوچهرى" يعتبر من أروع ما قيل في الشعر الفارسى، حيث تتمثل فيه طبيعة المكان الساحرة بكل فنونها أصدق تمثيل، وقل أن نجد ديواناً فارسياً يرد فيه هذا القدر من أسماء الثمار والورود والطيور.

"العسجدي"

هو "أبو نظر عبد العزيز بن منصور المروزى" (ت ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م)^٢، كان معاصراً "للعنصرى"، ومع كونه شاعر السلطان "محمود" ويرافقه في فتوحاته، وينظم له القصائد في مديحه وانتصاراته، إلا إنه لم يلق الجاه والعظمة كما لقيه أستاذه "العنصرى" من قبل السلطان. ينسب إليه ديوان من الشعر، يقال أنه يضم ثلاثة آلاف بيت، لكن لم يبق منه سوى بعض القصائد المعدودة والتي يظهر منها أنه كان ماهراً في الوصف والتشبيهات^٣.

يؤثر عنه قصيدة قيمة يمتدح فيها فتح "سومنا" مطلعها:-

١. علي الشابى: الأدب الفارسى في العصر الغزنوى، ص ١٨٩، ١٩٣، ٢٠٣، ٢٠٥.

٢. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٥٧٧.

٣. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، ص ٤٣.

منذ أن سافر المليك إلى سومنات، جعل أفعاله علماً للمعجزات^١

"أبو الفرج الروني"

من مشاهير شعراء العصر الغزنوي، وأغلب قصائده في مدح السلطان "إبراهيم بن مسعود"، وولده "مسعود"^٢، كان معاصراً "لمسعود سعد سلمان"، وكان الاثنان يعيشان في بلاط الأمير "سيف الدولة محمود" في الهند، وكانت بينهما رسائل شعرية كثيرة^٣.

"مسعود سعد سلمان"

من كبار شعراء النصف الثاني من القرن الخامس الهجري والنصف الأول من القرن السادس الهجري، عاصر السلطان "إبراهيم الغزنوي"، وأحياناً كان يصاحب الأمير "سيف الدولة محمود بن إبراهيم"، والذي أصبح والياً على الهند سنة (٤٦٩هـ/١٠٧٦م)، رحل "مسعود" إلى بلاطه وأصبح ملازماً له حتى سنة (٤٨٠هـ/١٠٨٧م)، وبمرسوم من السلطان "إبراهيم" حبس ابنه "سيف الدولة محمود" وشاعرنا "مسعود سلمان"، ومكث في الحبس سبع سنوات في قلعة "دهك وسو"، وثلاثة سنوات في قلعة "ناي" وتم الإفراج عنه سنة (٤٨٩هـ/١٠٩٥) أو سنة (٤٩٠هـ/١٠٩٦م)، وبعد وفاة السلطان "إبراهيم" سنة (٤٩٢هـ/١٠٩٨م) أودع السجن مرة أخرى، وقد سجن هذه المرة في قلعة "مرنج"، وهي إحدى القلاع الشهيرة في ذلك

^١. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه والجزء والصفحة. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٩٨، ٣٢٠.

^٢. نظامي العروضي: جهاز مقالة، ص ١٢٢. استاد خليلي: المرجع نفسه، ص ٣٢٩.

Bosworth: The Later Ghaznavids, p٥٦.

^٣. طلعت محمد أبو فرحة: مسعود سعد سلمان، ص ٢٢٨.

Arberry: Classical Persian Literature, p٢٠.

^٤. عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر، ج ٢، ص ١٥١. نظامي العروضي: جهاز مقالة، ص ١٢٢. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٤٨٨: ٤٨٣.

العصر^١، وقد ظل في هذا السجن قرابة ثماني سنوات ثم أفرج عنه سنة (٥٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م)^٢.

بذلك أمضى "مسعود سعد سلمان" زهرة شبابه في السجن، ولما فك اعتقاله أدركته الشيخوخة، لذلك زهد في خدمات الدولة وأمضى بقية حياته معتزلاً حياة البلاط، وأدركته الوفاة في "غزنة" سنة (٥١٥ هـ / ١١٢١ م)^٣.

نشأ شاعرنا نشأة أدبية وتأثر تأثراً كبيراً بشخصية أبيه الأدبية، والتي كان لها أثرها في تكوين الملكة الشعرية والذوق الأدبي لديه، ويبدو من أشعاره أن الشاعر كان ذا ثقافة واسعة في شتى المعارف والعلوم التي كانت سائدة في عصره، وهذا أمر ضروري لكل شاعر كبير، فهذه الثقافة الواسعة كانت تسعفه بإيراد التشبيهات والأمثلة والصور اللازمة للمواقف التي يتعرض للنظم فيها وتجعل مادته غزيرة ومعانيه فياضة، وهذا ما تحقق لهذا الشاعر.

أما عن ثقافته الدينية فإن شعره وما حفل به من إشارات إلى قصص القرآن تدل على أنها كانت واسعة شاملة، ومن ذلك إشارته إلى قصة سيدنا "نوح" فيقول في ذلك:ـ

سفينة السلطان جارية فوق الماء مثل سفينة نوح، وقد عم الطوفان الأرض من فعله

سيفه الحاد^٤

١. نظامي العروضي: جهار مقالة، ص ١٢٣. عبد العظيم رضايي: تاريخ ده هزار ساله إيران، ج ٣، ص ٤٦. طلعت محمد أبو فرحة: مسعود سعد سلمان، ص ١٦٠.

٢. عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر، ج ٢، ص ١٥١. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ٨٦.

Bosworth: The Later Ghaznavids, p٧٤:٧٧.

٣. رضا زاده شفق: المرجع نفسه والصفحة. طلعت محمد أبو فرحة: المرجع نفسه، ص ١٧٠.

٤. طلعت محمد أبو فرحة: المرجع نفسه، ص ٩٨، ١٨٤.

فالشاعر كان شديد الرغبة في التزود بالعلم والمعرفة، وكان يرى أن العلم والفضل لا يجتمعان مع الجاه والمال، كما كان يرى أن العلم والفضل هما سر البلاء والآلام لأصحابها في هذه الدنيا. وثقافته الواسعة وعبقريته الشعرية كانتا الدافع وراء ثقة الشاعر واعتداده بنفسه، بل كان شديد الفخر بعبقريته وبراعته في الشعر، وفي ذلك يقول ما ترجمته:..

يكون مناسباً ولائقاً لو أننى أفخر علناً، وعلى ذلك الذى يسعى وراء الفخر فى الخفا.

فأنا ذلك الذى لا يرى شخصى قط مثيلاً لى، وفى طلاقة اللسان بين العجم والعرب.

فلو تظهر مشكلة سواء فى النظم والنثر، فإن الزمان يطلب منى شرحها وتفسيرها.

ولقد أصاب فلكى التوفيق وبلغت الذروة، بهاتين اللغتين فى ميدانها.

فروح "الروديكى" و"ابن هانئ" تسجدان أمام فكرى وخاطرى إعظاماً وإجلالاً^١.

و"لمسعود سعد" ديوان يزيد عدد أبياته عن ستة عشر ألف بيت^٢، وقد قام بجمع هذا الديوان الشاعر الكبير "سنائى الغزنوى"، وذلك أثناء حياة "مسعود"، وبذلك حفظ لنا أشعاره من الضياع^٣، ويضم ديوانه جميع أغراض الشعر من مدح وهجاء ورثاء وفخر وغزل وإخوانيات، وغير ذلك من العادات والتقاليد التى كانت سائدة فى ذلك العهد، بل نجده يتعرض لبعض الآراء الفكرية والفلسفية والتصوف الذى كانت سوقه رائجة فى عهده، فيأخذ من كل بسبب، ويخرج لنا فى النهاية صورة واضحة المعالم لإنسان عاش فى ذلك العصر بأحداثه وأفكاره^٤.

فلننظر الآن إلى كل من هذه الموضوعات على حدة لنقف على الحقيقة التى ننشدها:

١. طلعت محمد أبو فرحة: مسعود سعد سلمان، ص ١١٩.

٢. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٤٩٠.

٣. نظامي عروضي: جهار مقالة، ص ١٢٤.

٤. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه والجزء، ص ٤٨٣. طلعت أبو فرحة: المرجع نفسه، ص ٢٤٣.

كان "مسعود سعد" من شعراء البلاط الغزنوي، عاصر العديد من سلاطين تلك الدولة، لذلك كان المديح يمثل الصبغة العامة لأشعاره والجانب الأكبر من إنتاجه الشعري، ف شعر المديح في ذلك العصر هو جواز المرور إلى القصور وإجازة الحصول على الشهرة والجاه، فكانت دوافع الشاعر في المرحلة الأولى من حياته من أهم عوامل إتقانه وإجادته لفن المديح، لذلك نظم قصائده في المديح محاولاً أن يشق طريقه إلى القمة.

ومن شعره في مدح السلطان "بهرامشاه" ما ترجمته:.

الحمد والمنة لله أن الزمان على ما نشتهى ونحب، واليوم هو يوم الحظ والإقبال فلا شئ

يعكر صفونا

. فنحن نتقلب في العدل ونخطو فيه فقد إختار طرق العدل، المليك الذي لا يفضل

الملوك جميعاً غيره

. هو السلطان يمين الدولة "بهرامشاه"، وهو المليك الذي لا قرين له بين الملوك على مر

الزمان^١

أما بالنسبة للحبسيات. القصائد التي نظمها أثناء وجوده في السجن. فقد بلغت درجة كبيرة من العلو والرفعة، وتلك الحبسيات أرسل بها إلى السلاطين معتذراً وإلي الوزراء شاكياً مما يعانيه من آلام ومتاعب متوسلاً بهم لدى السلاطين للحصول على حريته^٢.

وكان لطول الفترة التي قضاها الشاعر في تلك القلاع وسط الآلام والوحدة والبعد عن الأهل أبعد الأثر في إنتاجه الشعري كماً وكيفاً، فنجد الحبسيات أكبر الموضوعات حجماً بعد المديح، ومن ذلك قوله للسلطان "إبراهيم بن مسعود" (٤٥١: ٤٩٢ هـ/ ١٠٥٩: ١٠٩٨ م) ما ترجمته:.

١. طلعت أبو فرحة: المرجع نفسه، ص ٣١، ٢٤٣، ٢٤٧. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي،

ص ٨٦.

٢. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه والجزء والصفحة.

يا مولاي العظيم الآن وقد انقضى ما يقرب من عشر سنوات، وروحي تتناقص من الغم والهم والحزن

فوجهي قليل منهك من خمش أظافري وصدرى أزرق من ضرب يدي، وقلبي محترق بما به من نار وجسمي نحيل مثل الشعرة النحيلة^١

أما الموضوع الثالث الذي نظم فيه كثيرًا من أشعاره هو الوصف، وهذا الموصوف يشمل كثيرًا من الأشياء مثل الطبيعة في فصول السنة المختلفة ووصفه للقلاع والسجون، كما انتقل في أخريات حياته إلى وصف فئات المجتمع المختلفة وأفراده بحرفهم وصناعاتهم.

ومن ذلك وصفه للخريف:-

لقد اتجهت رياح الخريف إلى البستان، فقلبت وضع الدنيا وجعلته مختلفًا

فجعلت الغصن منحنياً مثل القوس، وأطلقت البرد من مكمنه^٢

كذلك نظم كثيرًا من أشعاره في مناسبات تاريخية مثل تاريخ جلوس بعض السلاطين أو قيامهم ببعض الفتوحات أو توليه بعض الأمراء حكم بعض الولايات، فقد تحدث عن فتوحات الأمير "سيف الدولة محمود" في بلاد الهند بحيث تمثل أشعاره وأشعار الشاعر المعاصر له "أبو الفرج الروني" المرجع التاريخي الوحيد في هذا الصدد^٣.

فضلاً عن ذلك كان "مسعود سعد" يجيد اللغة العربية، وقد نظم فيها شعراً، وقد أكثر الشاعر من الإشارة إلى هذا الجانب، وهو معرفته للغة العربية والفارسية وفي ذلك يقول:-

^١. طلعت أبو فرحة: مسعود سعد سلمان، ص ٢٥٥. أركن رحمة الله يف. عبد الله يولداشيف: الحضارة الإسلامية في تاجيكستان، ص ٨٩.

^٢. طلعت أبو فرحة: المرجع نفسه، ص ٢٦٩، ٢٧٣.

^٣. المرجع السابق، ص ٢٩٩.

^٤. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٤٩٠.

. لقد أعطى لسان الدولة العالية لعبدك رسالة، يقول فيها يا من إنقادت لك اللغتان
الفارسية والعربية

. عندما تثنى على السلطان بهذين اللسانين العذيين، يكون لك الثناء في الدنيا من الخاص
والعام^١

ومن أشعاره باللغة العربية:-

يعيوني أنى أقول مغاضباً

حبى عندى حبه قيمة الحب

بلى قيمة المعشوق عندى حبه

ولكنها أعنى بها حبة القلب^٢

وينسب إليه أيضًا أنه قام بتلخيص "شاهنامه الفردوسي" ودون هذا التلخيص في
كتاب باسم "اختيارات الشاهنامه"، ومهما يكن من قيمة هذا العمل، فهو يحتاج لأستاذية
كاملة وتفوق كبير في الشعر الفارسي، ويحتاج إلى ذوق ناقد فذ متمكن يستطيع أن يختار
من بين أشعار "الشاهنامه" بعضًا ويدع البعض الآخر^٣.

"سيد حسن الغزنوى"

"هو أشرف الدين أبو محمد حسن بن محمد حسيني الغزنوى، سيد الشعراء كان
معاصرًا للشاعر "سنائي الغزنوى" والشاعر "مسعود سعد سلمان"، من شعراء

١. طلعت أبو فرحة: المرجع نفسه، ص ١٩٨.

٢. عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر، ج ٢، ص ١٥١.

٣. طلعت أبو فرحة: مسعود سعد سلمان، ص ٢٣٦.

٤. محمد كامكار بارسى: رباعى ورباعى سرايان از اغاز تا قرن هشتم هجرى، به كوشش إسماعيل

حاكمى، تهران، ١٣٧٢هـ، ص ١١٦.

٥. أسفزاری: روضات الجنات في أوصاف مدينة هرات، ص ١٦٣.

عصر السلطان "بهرامشاه" (٥١٢: ٥٤٧ هـ / ١١١٨: ١١٥٢ م) وهو من الشعراء العظام الذين مدحوه^١، وفي يوم جلوس بهرامشاه على عرش "غزنة" نظم قصيدة مطلعها:

- جاء النداء من السماء السابعة، أن بهرامشاه هو ملك العالم^٢

له ديوان يحتوي على موضوعات مختلفة ومتعددة من الشعر من مدح ورثاء ووعظ وغزل^٣، توفي سنة (٥٥١ هـ / ١١٥٦ م)^٤.

"المختاري الغزنوي"

هو "أبو المفاجر سراج الدين عثمان بن محمد المختاري الغزنوي" (ت ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م)، يعد من كبار شعراء القصائد في القرن السادس الهجري، عاش في عصر السلطان "إبراهيم بن مسعود" (٤٥١: ٤٩٢ هـ / ١٠٥٩: ١٠٩٨ م)، والسلطان "مسعود بن إبراهيم" (٤٩٢: ٥٠٨ هـ / ١١١٤: ١٠٩٨ م)، وقام بمدح هؤلاء السلاطين^٥، وكان أستاذًا في قرض الشعر في جميع فنونه، كان محل تقدير الشعراء الآخرين المعاصرين له، دعاه "سنائي" بالأستاذ ويبلغ ديوانه قرابة ثمانية آلاف بيت^٦.

(٢) شعر الملاحم

^١. سليم نيساري: تاريخ أدبيات إيران بعد إز إسلام، ص ٧٢.

^٢. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ٢٦٠.

^٣. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٥٩٢.

^٤. ميرخواند: روضة الصفا، ص ١٧٢. عباس إقبال: تاريخ إيران، ص ٢٠٥.

^٥. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه والجزء، ص ٥٠١. استاد خليلي: المرجع نفسه، ص ٣٣٧.

^٦. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ١١٧. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه والجزء، ص ٥٠٣.

الشعر الملحمي من أقدم الموضوعات التي بدأ بها الأدب الفارسي نثره وشعره، وكان هذا راجعاً إلى رغبة الفرس في إحياء أمجادهم القديمة وإحياء تراثهم القومي والحضارى الذى فقدوه بالفتح الإسلامى لبلاد فارس^١.

والملمحة بصفة عامة مجموعة من أعمال البطولة لفرد أو جماعة، تكونت منها رواية مترابطة الأجزاء كاملة غير مبتورة تبدأ من نقطة وتنتهى عند غاية، وعمل الشاعر لحمل أجزائها ونظم وقائعها دون التدخل فيها أو توجيهها، فهو يعرض أحداثها عرضاً فنياً ويصف مشاهدتها وصفاً شاعرياً، يستولى على النفوس ويستهوئ الأفتدة ويلذ الأسماع من غير أن يمس جوهرها أو يبتعد بها عن أصلها.

ومن خصائص الملاحم مرور أحقاب طويلة بين وقوع أحداثها ونظمها، ومع بعد المسافة بين عصرى أبطال الملمحة وناظمها، فإنه لا بد من وجود مشتركات عامة بين العصرين يتحقق بها وجودها ويكتب لها البقاء، فالعقائد والأفكار والإحساسات التى كانت سائدة فى عصر الأبطال ينبغى أن لا تكون قد انتهت كلها فى عصر نظم الملمحة وأخذت غيرها مكانها، وإلا انعدم التجاوب بين الشاعر والجمهور فلا تعيش ملمحته طويلاً. وليست الملمحة مجرد سرد لأعمال البطولة ووصف لمشاهد الحروب والإشادة بالأبطال فقط، بل هى كذلك معرض لعقائد الأمة وأفكارها وأخلاقها^٢.

عرفت كتب الملاحم فى الأدب الفارسي بالشاهنامات أى كتب الملوك التى تحتوى على أخبار الملوك وبطولاتهم وما قدموه من مفاخر تعتز بها أوطانهم، وعلى هذا فكل كتاب يحمل فى اللغة الفارسية اسم "شاهنامه" يكون ملمحة حماسية^٣، والشعر الحماسى يجب أن

١. السباعى محمد السباعى: النثر الفارسي منذ النشأة حتى نهاية العهد القاجارى، دار الثقافة، ١٩٨٧م، ص ٤٦.

٢. أمين عبد المجيد بدوى: القصة فى الأدب الفارسي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٤م، ص ٩٨.

٣. بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ١٨٩.

يكون له مادة من الأساطير تجعل جوه مليئاً بآثار القدم تجول فيه الآلهة والأبطال بعواطفهم الكبيرة وأعمالهم العظيمة محاطين بهالة من الخيال^١.

ويعتبر "أبو القاسم الفردوسي" أعظم شاعر ملحمي عرفه المسلمون، وتعتبر "شاهنامته" معلماً من معالم الأدب الفارسي والإسلامي على السواء^٢، وهو في نظر شعبه الشاعر الفذ الذي لا يسمو إلى مرتبته شاعراً آخر، وما زالت أشعاره تطرب لها آذان الفرس وقلوبهم منذ أكثر من ألف عام.

و"الفردوسي" هو "أبو القاسم منصور بن حسن الطوسي" (ت ٤١١هـ/ ١٠٢٠م) نظم معظم "الشاهنامة" بين سنتي (٣٨٧هـ/ ٩٩٧ م، ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م)، وإن كان قد شرع في النظم قبل ذلك بعشرين سنة^٣، نظمها في عهد "أبي منصور محمد" والي خراسان، وهياً له هذا الوالي أسباب الحياة مما جعله في غني عن سؤال غيره، أخذ الشاعر في المضي في النظم وأخذ الناس يتناقلون ما نظم من قصص وأصبح "الفردوسي" ذائع الصيت في كل مكان، ثم سعي الشاعر إلى السلطان "محمود" بعد أن فقد "أبا منصور" لأنه كان في حاجة إلى معين له، ومثل هذا العمل الأدبي الضخم يتطلب مالاً كثيراً، وقد نصحه "أبو منصور" قبل وفاته أن يهدي كتابه إلى الملوك فهم أقدر الناس على تقديره، لذلك رحل إلى بلاط السلطان "محمود" في "غزنة" وقدم إليه شاهنامته، فقبلها السلطان "محمود" غير أنه لم يلق تقديرًا منه يليق بمكانته، حيث سأل السلطان "محمود" جماعة ماذا نعطي "الفردوسي" علي هذا العمل؟ قالوا خمسين ألف درهم، بل هذا كثير لأنه رافضي معتزلي^٤، فما كان من

١. محمد محمدى: الأدب الفارسي، ص ٢٢٧.

٢. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٤٥٨.

Hill and Oleg Grabar: Islamic Architecture and its Decoration, London, ١٩٦٧, p٣٣.

G. H. Rawlinson: India, A Short Cultural History, p٢٠٩.

٣. الفردوسي: الشاهنامة، ص ٥٤.

٤. نظامي العروضي: جهاز مقالة، ص ٥٦. بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٧٠.

السلطان "محمود" إلا وأرسل "الفردوسي" عشرين ألف درهم، فكان هذا المبلغ لا يتناسب مع الجهد الذى بذله هذا الشاعر^١.

أما السبب فى إعراض السلطان "محمود" عن "الفردوسي"، هو وشاية بعض رجال السلطان عندما اتخذوا من بعض أبياته ذريعة لإتهامه بالاعتزال، لاتباعه آرائهم فى أن رؤية الله سبحانه بالعين غير ممكنة، إذ يقول:.. إنك لن ترى الخالق بعينك فلا تجهدهما؟

وكان السلطان مخالفاً لمذهب المعتزلة مضطهداً لأصحاب كما ذكرنا من قبل، وهناك سبب آخر أن الشاعر فى ملحمة الخالدة كان يمجّد ملوك الفرس الوثنيين، ولم يكن هذا مقبولاً لدى السلطان الذى يعتبر نفسه محطّم الأصنام وحامى حمى الدين والسنة، ولم يكن هذا مقبولاً أيضاً لدى رجال الدين بدليل أنهم رفضوا دفن "الفردوسي" فى مقابر المسلمين^٢. فالأسباب كانت إذن دينية مذهبية وليست أدبية فنية.

بعد هذا الجفاء غادر "الفردوسي" "غزنة" قاصداً "هراة"، فلما أطمّن نفسه من السلطان "محمود" لجأ إلى ملك طبرستان "رستم بن شهریار" (٣٦٩: ٤١٩ هـ/ ٩٧٩: ١٠٢٨ م) والتقى به قائلاً: سأحول هذا الكتاب من اسم "محمود" إلى اسمك فإن هذا الكتاب كله أخبار أجدادك ومآثرهم، ولكن هذا أخذ يهدئ من روعه "الفردوسي" مندفعاً بعطفه عليه وحبه للعمل الرائع الذى قام به، فعزم على أن يمنحه بعض المال ليكون عوناً له، فهو لا يستطيع أن يأتى بعمل يغضب السلطان، و"الشاهنامه" التى لم يقدرها "محمود" لا يستطيع هو أن يبدى إعجابه بها^٣.

^١. نظامى العروضى: المصدر نفسه، ص ٥٧. رسول جعفریان: الشيعة فى إيران، ص ٣٠٦.

Lane Poole: Mediaeval India Under Mohammedan Rule (A.D. ٧١٢-١٧٦٤)، p٣٠.

^٢. الفردوسي: المصدر نفسه، ص ٥٧. محمد الرفاعي: الخلافة العباسية، ص ٢٠٦. علي الشابى: الأدب الفارسي فى العصر الغزنوى، ص ٧٣. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ٥٦.

^٣. نظامى العروضى: المصدر نفسه والصفحة. رسول جعفریان: المرجع نفسه والصفحة.

وتذكر الروايات أن السلطان "محمود" ندم على مسلكه اتجاه "الفردوسی" وأنه أمر له بجائزة تعوضه عما لاقاه من نكران، ولكن الجائزة دخلت من باب بينما كانت جنازة "الفردوسی" تخرج من الباب الآخر، توفي "بطوس" ودفن بها^١.

أما بالنسبة "لشاهنامته" فتعتبر عملاً إبداعياً رائعاً من أروع الأعمال الشعرية التي أنجزتها الإنسانية بجمعها، وأهميتها ليس في كبر حجمها فقط، بل لأنها موسوعة الشعوب الإيرانية لفترة ما قبل الإسلام وذاكرتهم التاريخية، أحياها "الفردوسی" بإبداع رائع لذلك فلها مكانة عظيمة عند الفرس فهي سجل تاريخهم وأناشيد مجدهم، وديوان لغتهم ينشدونه في المحافل ويهيم به العالم والجاهل، وكان "الفردوسی" يقول مؤكداً أهمية ملحمة "وبذلت أقصى جهد طوال الثلاثين سنة هذه، وأحييت العجم بهذه الفارسية، وبنيت من الشعر قصرًا شامخًا لا تضره الرياح والأمطار"^٢.

كرس "الفردوسی" حوالي ثلاثين عامًا من حياته ليحكي تاريخ بلده في حوالي ستين ألف بيت من الشعر، حيث تشتمل الملحمة على أمجاد أربع دول قديمة اثنتان منها خرافيتان مأخوذتان من الأساطير الواردة في الأفيستا، والاثنتان الاخرتان هما البارثيون والساسانيون، ولكن الملحمة تشتمل على أساطير حتي في هاتين الدولتين أكثر مما تحتوي على تاريخ دقيق، وتكثر في هذه الملحمة الطويلة قصص الفروسية والبطولة، وكانت مصدر هام لكثير من شعراء الفرس المتأخرين^٣.

قسم الباحثون "الشاهنامه" انطلاقاً من محتواها إلى ثلاثة أقسام، وهي:-

١. القسم الأسطوري.

١. الفردوسی: المصدر نفسه، ص ٤٥. نظامی العروضي: المصدر نفسه، ص ٥٦: ٥٩.

Lane Poole: Op, cit, p٣١.

٢. الفردوسی: الشاهنامه، ص ٧١. أمين بدوي: القصة في الأدب الفارسي، ص ١٧٠..

٣. دونالدولبر: إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة عبد النعيم محمد حسنين، مكتبة مصر، ١٩٥٨م، ص ٥٦. ريسلر: الحضارة العربية، ص ٩٥. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ٥٣.

٢. القسم البطولي.

٣. القسم التاريخي.

القسم الأول: يحتوي علي قصص منسوبة إلي سيرملوك إيران الأسطورية أمثال كيومرث، جيومرث، طهمورث، وجمشيد، وغيرهم. والقسم الثاني: يشتمل علي قصص بطولية منها قصة "زال" وقصة "رستم" وقصة "سياوش"، وقصة "إسفنديار"، وقصة "سهراب" وغيرها كثير، أما القسم الثالث: فيبدأ من غزو "الإسكندر المقدوني" "لإيران شهر"، ويحتوي أساسًا على تاريخ الأسر الساسانية الذي دام حوالي أربعمئة سنة^١.

وفي الشاهنامه نجح الفردوسي في الوصول إلى الإنسانية المطلقة عن طريق محاربة الظلم والفساد بالتضحية والعدل والعطاء، وهناك نماذج بارزة لهذه الإنسانية مثل رستم وسياوش، وبالطبع فإن سائر الملوك والأبطال الصالحين يستفيدون من ذلك أيضًا إلى حد ما.

وتحتوي الشاهنامه علي العديد من الحقائق والمعارف والمشاعر اللطيفة والنقاط الدقيقة وكل ما يرغب فيه القارئ يجد في الشاهنامه من الرزائل كالكذب والغضب والحسد والحقْد والحرص والطمع. ومن الفضائل الصدق والصبر والوفاء والقناعة والرضا والعطاء، ومساعدة الفقراء والشرف والتسامح والحمد والشكر والحذر من الوقوع في المحرمات، وضرورة الوسطية والاعتدال واتباع الرحمة مع الأسير والعبد.

ومن خصائص الفردوسي طهارة اللسان والعفة فلا يوجد في الشاهنامه كلها لفظ واحد قبيح أو عبارة مستهجنة، وبشكل عام فإن الفردوسي رجل صاحب أخلاق حميدة، ونظرة عالية وقلب رقيق وحس لطيف وذوق سليم وطبع حكيم، وهو دائما ما يستخلص

^١إسعاد عبد الهادي قنديل: فنون الشعر الفارسي، ص ٤٨. أمين عبد المجيد بدوي: جولة في شاهنامه الفردوسي، مكتبة النهضة المصرية، (د.ت)، ص ٨٢، ٩١. بديع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسي، ص ١٩٣.

الدروس المستفادة من القضايا وينبه القارئ بأن العمل السيئ ليس له إلا نتيجة سيئة مثله، وأن الطريق المعوج لا يصل بالإنسان إلى مقصده^١.

كما أنها تضمنت معلومات هامة عن الظروف الاجتماعية التي كانت سائدة في إيران قبل الإسلام، ومعلومات هامة عن العقائد الإيرانية وغير ذلك من المعلومات التي تفيد فائدة جمة في تحليل الشخصية الإيرانية، وإلى جانب الأهمية التاريخية فإنها مهمة من الناحية الأدبية، فقد أوجدت مجالاً خصباً للتأليف، فقد حاول الشعراء فيما بعد أن يجاروا هذا العمل، فصدرت عدة منظومات تقليداً "لشاهنامه"^٢. لذلك فإن الفردوسى هو بلا شك أعظم شاعر باللغة الفارسية، تتمتع بدرجة الأستاذية وبالتقدم على جميع الشعراء الفرس الذين جاءوا من بعده، والذين نظموا بهذا الأسلوب^٣.

ومن الملاحم الأخرى منظومة "شهریار نامه" في سيرة "شهریار بن برزو بن سهراب بن رستم" أنشأ هذه المنظومة الشاعر "سراج الدين عثمان بن محمد المختارى الغزنوى" (ت ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م) وقد نظمها امتثالاً لرغبة السلطان "مسعود بن إبراهيم"^٤. وقد أمضى في نظم هذه القصة ثلاث سنوات، وقدمها إلى السلطان وفيها يقول:-

تحملت العناء، في هذه القصة ثلاثة أعوام

ولم أدون فيها قط. ردئ الكلام

وقدمتها إلى وردة من حديقة السلطان محمود

^١ مرتضى راوندی: تاریخ اجتماعی ایران، جلد هشتم، بخش اول، ص ١٣٩: ١٣٤.

^٢ بدیع محمد جمعة: من روائع الأدب الفارسی، ص ١٩٤. أربری: تراث فارس، ص ٢٧٥. بروکلان: تاریخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٧١.

^٣ استاد خلیلی: سلطنت غزنویان، ص ٣٢٣.

^٤ محمد محمدی: الأدب الفارسی، ص ١٩١. إسعاد عبد الهادی قندیل: فنون الشعر الفارسی، ص ٥٠.

إلى السلطان الفاتح الكريم مسعود^١

(٣) الشعر القصصي (الحكايات)

نعنى بالقصة الفارسية هذا الجانب القصصي من الأدب الفارسي الإسلامي، والذي يعد من أوسع جوانب هذا الأدب وأكثرها إشراقاً وأرسخها أركاناً^٢. تتألف القصة عادة من ثلاثة عناصر رئيسية: الموضوع والشخصيات والحوار، وتدور القصة حول سلسلة من الأحداث أو شخصية من الشخصيات أو فكرة من الأفكار تجرى في بيئة معينة، فيكون العنصر السائد في القصة سلسلة الحوادث أو الشخصية أو الفكرة أو البيئة. وتنقسم القصص الفارسية من حيث الشكل والصورة إلى قسمين: الأول الرواية وتسمى في الفارسية داستان، والثاني الحكاية ويسمىها الفرس حكايت. فالرواية يعنى بها القصة المطولة التي استأثر بها الشعر فيما بعد فتحولت إلى ما يسمى بالملحمة. أما الحكاية فهي القصة الفارسية القصيرة والتي ساهم فيها النثر والشعر على السواء^٣.

هذا النوع الثاني من الشعر من الأنواع التي اهتم بها باكرًا في الأدب الفارسي، وقد ازداد الشعر القصصي رونقاً في مطلع القرن الخامس الهجري عندما نسب إلى الشاعر "العنصرى" نظم بعض المثنويات التي تتناول قصصاً عاطفية^٤.

ألف "العنصرى" مثنويات قصصية كثيرة أهدها إلى خزانة السلطان "محمود" منها "شاد بهر وعين الحياة" ترجمها البيروني إلى العربية بعنوان "قسيم السرو وعين الحياة" ومنها

١. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ١١٧. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٥٠٣.

٢. أمين عبد المجيد بدوي: الجانب القصصي في إيران ومصر، ص ٩٧.

٣. أمين عبد المجيد بدوي: القصة في الأدب الفارسي، ص ٨٧: ٩١.

٤. محمد محمدى: الأدب الفارسي، ص ١٩٩. إسعاد قنديل: فنون الشعر الفارسي، ص ٦٣.

"خنك بت وسرخ بت" أي الصنم الأبيض والصنم الأحمر، وقد ترجمها البيروني أيضا بعنوان "حديث صنمي باميان" وقصة "وامق وعذراء"^١.

وقد ورد في ثنانيا شاهنامة "الفردوسي" مجموعة من القصص العاطفية، فهي ليست كلها حربًا وقتالًا بل تتخللها مجموعة شائعة من القصص مثل قصة "رودابة" بنت ملك "كابل" و"زال بن سام"، وقصة "خسرو وشيرين"، وعلى الرغم من أن ذكر هذه القصص ورد قصداً أو عرضاً في "الشاهنامة" التي تتعرض في المقام الأول للموضوعات الحماسية والبطولية، إلا أن "الفردوسي" أضفى عليها من خصب خياله وروعة بيانه ودقة أدائه ما جعلها تمثل جانباً مهماً من "الشاهنامة"، وعلي كل حال يمكن أن نعتها منشأ ومثلاً يحتذى للقصص العاطفية التي ظهرت فيما بعد^٢.

ومن بين القصص العاطفية بالشاهنامة قصة كبيرة الشبه بقصة يوسف وزليخا امرأة العزيز، ألا وهي قصة افتتاح "سوزابة" ابنة الملك "هماوران" وزوجة الملك "كيكاوس" بابن زوجها "سياوش"، وفيها راودت سوزابة سياوش فلم يستجب لها وخشيت افتضاح أمرها فسبقت إلى أبيه شاكية مدعية أنه حاول الاعتداء عليها ولكن ثبتت براءته، وصفح عنها زوجها كما فعل العزيز مع امرأته، ولكنها لم تكف عن الكيد له ففر إلى بلاد توران حيث تزوج "فرنكس" ابنة "أفراسياب" وقتل هناك آخر الأمر^٣.

وهناك قصة أخرى من أوائل القرن الخامس الهجري عرفت باسم "ورقة وكلشاه"، وهي قصة قديمة لا يستبعد أن تكون من أصل إيراني، ولكنها ظهرت فيما بعد علي شكل

^١- ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٢٨٣، ٥٦١. رضا زادة شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ٤٢.

^٢- إسعاد قنديل: المرجع نفسه والصفحة.

^٣- أمين عبد المجيد بدوي: جولة في شاهنامة الفردوسي، ص ٨٩، ص ١٩٩.

قصة تجري وقائعها جميعاً في الجزيرة العربية، نظم هذه القصة شاعر باسم "عيوفى" من معاصري السلطان "محمود الغزنوى"¹.

ازداد الشعر الفارسي بفضل هذه القصص توسعاً وتنوعاً، فبعدما كان مقصوراً على قصيدة مدح أو هجاء، ومقطوعة يشار فيها إلى فكاهاة أو حماسة يشاد فيها بالأبطال، ظهرت هناك أنواع أخرى من الشعر يشاد فيها ببطولة العشاق وآلامهم، أو تصور فيها المثل الأخلاقية العليا التي ترتاح إليها النفس، وكل ذلك من حاجات النفس الإنسانية التي لا غنى عنها، فكان طبيعياً أن يقوم الشعر بتحقيق ما تطلبه النفس منه².

(٤) شعر الغزل

قُسم الغزل في الفارسية إلى قسمين:ـ

- غزل بشرى: يكون المعشوق فيه إنسان من البشر.
 - غزل صوفي: يتغنى بالمحبة الإلهية، وهذا النوع من الغزل الصوفي من أروع ما نظم في الشعر الفارسي بل إنه سر عظمة الشعر الفارسي بأكمله.
- بالنسبة للنوع الأول من الغزل: فمنذ أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس الهجري اتخذ شعراء المديح من الغزل مطية لأغراضهم، فقد درجوا على نهج شعراء العرب من تصدير قصائدهم في المدح بأبيات في الغزل، حيث تفتنوا فيها بذكر جمال المحبوب وأوصافه ومحاسنه وأمثلة ذلك كثيرة في قصائد "العنصرى" والفرخى "و"المنو جهرى"³.

أما بالنسبة للغزل الصوفي: فمن المعروف أن نفوذ الصوفية بدأ يظهر في الشعر الفارسي، وأخذ هذا النفوذ يزداد علي مر الأيام، بحيث قل أن نجد شاعراً لم تكن له صلة

¹. محمد محمدى: المرجع نفسه، ص ٢٠٠.

². محمد محمدى: الأدب الفارسي، ص ٢٣٠.

³. إسعاد عبد الهادى قنديل: فنون الشعر الفارسي، ص ٥٦.

بالتصوف، وكان ينبغي أن يكون الأمر على هذا النحو لأن صلة التصوف بالشعر أمر طبيعي، فالتصوف مذهب القلب والشعر لسان القلب^١.

فكلام الصوفية كله شعور صادق وعاطفة متقدة، وكله ألحان وموسيقى، فالحياة لديهم نغم ووجد، ومحب ومحبوب، فهم أبداً في مفاجأة إلهية، وفي جلوة وأنس وحضرة زكية، وفي إشراقات وإلهامات قدسية، في حرارة الحب يعيشون، وفي جمال الهوي يتواجدون، وفي ربهم يفتنون فيخلدون، هم يعيشون في دائرة حب إلهي يضفي ظلاله على حياتهم وعلي تفكيرهم وحركاتهم، فيلونها بألوان سماوية لا تطيقها العيون الأرضية، ألوان تفهمها أرواح وتطمئن إليها قلوب، وتستنكرها وتنفر منها عيون، حب يلمع ويشرق في كل سطر وحرف سطره^٢.

ومن أهم الآثار التي ترتبت علي دخول التصوف في الشعر، أن الشعراء الصوفية قللوا من استعمال فن القصيدة لأنها قامت أساساً على المدح والتملق، والصوفية لا يهدفون إلى ذلك لأنهم تحروا من قيود الدنيا والبحث عن أسبابها، ولذا نجد دواوين الشعراء الصوفية بعضها خال تماماً من القصائد، وقد استتبع هذا رواج الأنواع الأخر كالغزل^٣.

كان من التقاليد المتبعة في الخانقاوات إقامة حلقات السماع التي يردد فيها القوالون أشعاراً في الغزل يفسرونها تفسيراً صوفياً، فيتملك الصوفية حالة من الوجد، ومن هنا بدأ الصوفية يتخذون من الغزل وسيلة لشحذ خواطر المستمعين، مما ترتب عليه اهتمام جماعة من المتصوفة بنظم الغزل الصوفي على طريقتهم الخاصة وسلكوا فيه مسلك الرمز والايحاء، بحيث أصبح للشعراء المتصوفة لسان مرموز ولغة خاصة، فعلى الرغم من أنهم استعملوا نفس الألفاظ التي كان يستعملها غيرهم من الشعراء غير المتصوفة إلا أنهم

١. الهجویری: كشف المحجوب، ص ٣٦. قاسم غنی: تاریخ التصوف فی الإسلام، ص ٦٦٣. ذبیح الله صفا: تاریخ سیاسی واجتماعی وفرهنگی ایران، ص ١٦٠.

٢. محمد عبد المنعم خفاجی: دراسات فی التصوف الإسلامی، ج ١، ص ١٥٨.

٣. إسعاد عبد الهادی قندیل: لمحات من الغزل الصوفي فی الشعر الفارسی، ص ٩.

استعملوها على سبيل المجاز والكنيات والاستعارات، فالله عندهم هو "الحبيب" والمعشوق"، والوجد الحاصل من التفكير فيه هو "الخمر"، وما شابه ذلك من التعبيرات الرمزية الكثيرة^١.

ومن أكثر الشعراء الصوفية اهتمامًا بالنظم في الغزل هو الشاعر "سنائي الغزنوي"، فقد بلغ مجموع ما نظمه في هذا الفن خمسمائة وثلاث عشرة غزلية تبدو في معظمها روح التصوف واضحة جلية، ومن هنا عرف "سنائي" كرائد للغزل الصوفي^٢. كما كان حكيماً عارفاً، تاركاً للدنيا، له ديوان كبير كله حكم ومواعظ من حقها أن تكتب بالذهب^٣.

هو "أبو المجد مجدود بن آدم" (ت ٥٤٥هـ / ١١٥٠م) المتخلص "بالسنائي"، والملقب "بالغزنوي"^٤. كان في أول أمره مداحاً للغزنويين، فقد مدح السلطان "مسعود بن إبراهيم" والسلطان "بهرامشاه بن مسعود" والذي أهداه أعظم قصائده الشعرية^٥، والوزراء والندماء، ثم اتجه إلى نظم المثنويات الصوفية فهو أول من نظمها، وتنسب إليه سبع مثنويات هي: "حديقة الحقيقة"، و"سير العباد إلى المعاد" وتتكون من حوالى سبعمئة بيت،

^١. إسعاد عبد الهادي قنديل: لمحات من الغزل الصوفي في الشعر الفارسي، ص ٨.

^٢. إسعاد عبد الهادي قنديل: فنون الشعر الفارسي، ص ٢٠١.

^٣. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٤٢٩.

^٤. دولت شاه سمرقندي: تذكرة الشعراء، ص ٥٩. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ٧٣. محمد أبو المجد هلال: فن الغزل في الشعر الفارسي نشأته وتطوره منذ منتصف القرن الثالث الهجري حتى نهاية القرن السادس الهجري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٢٤٣.

^٥. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٥٥٣. استاد خليلي: سلطنت غزنويان،

ص ٢٥٢، ٢٦٠، ٢٠٠. Arberry: Classical Persian Literature, p ٢٠٠.

Bosworth: The Later Ghaznavids, p ٥٧.

و"طريق التحقيق"، و"عشقنامه" وتتكون من ألف بيت، "عقل نامه"، و"كارنامه بلخ" وتتكون من خمسمائة بيت^١.

وأشهر هذه المثنويات جميعاً "حديقة الحقيقة وشريعة الطريقة"^٢، وتسمى أيضاً "إلهي نامه"، وهى عبارة عن مثنوية أخلاقية صوفية نظمها "السنائى" باسم السلطان "بهرامشاه" فى عشرة آلاف بيت، وقسمها إلى عشرة أبواب هى:-

الباب الأول: يتحدث عن التوحيد.

الباب الثانى: يتضمن ذكر كلام البارى.

الباب الثالث: يتناول نعت النبى صلى الله عليه وسلم

الباب الرابع: يتحدث عن العقل.

الباب الخامس: يتحدث فيه عن العلم.

الباب السادس: يتضمن الحديث عن النفس.

الباب السابع: يتناول الأفلاك والبروج.

الباب الثامن: يمدح فيه السلطان "بهرامشاه".

الباب التاسع: خصصه للحكم والأمثال.

الباب العاشر: خصصه لتصنيف الكتاب.

١. ذبيح الله صفا: المرجع نفسه والجزء، ص ٥٦٢. أربرى: تراث فارس، ص ٢٧٦. سعيد السيد الباجورى: الشعر التعليمي في الأدب الفارسي الإسلامي، ص ٣٠. إسعاد عبد الهادى قنديل: فنون الشعر الفارسي، ص ٢٠٤.

٢. إسفزاری: روضات الجنات فى أوصاف مدينة هرات، ص ٣٦٢. ذبيح الله صفا: خلاصة تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران تا بايان عهد صفوى، ص ١٥٩.

وقد أخذ مؤلفوا كتب التوحيد والتصوف معظم أبيات هذا الكتاب واستشهدوا بها في مؤلفاتهم^١. وتتميز "الحديقة" بين كتب التصوف بأنها تتضمن نواحي المعرفة^٢، كما تمتاز بالبلاغة وقوة السبك، وأتمها "السنائي" سنة (٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م)^٣. وفيما يلي غزلية "لسنائي":

.إذا انقضت سنوات عمري، فهذا جائز

.إنها العجب أن تدوم سنوات الحياة

.ونهاية العشق غير ظاهرة إلى الأبد

.فمن أين إذن تكون فيه السنوات والشهور والوقت؟

. يا ويلاه ويا حسرتاه إذا انفصل العشق لحظة عن روحى طوال سنوات عمري

وشهورى

.وأنت يا من جئت طامعاً في وصال حبيبك

.ألم تسمع أن العشق لأجل البلاء؟^٤

وله أيضًا:

.نحن جئنا إلى الدنيا من العدم من أجلك

.لا لم نجى من أجل الطرب واللهو والصراخ

١. سعيد السيد الباجورى: الشعر التعليمي في الأدب الفارسي الإسلامي، ص ٣٠. إسعاد عبد الهادي قنديل: فنون الشعر الفارسي، ص ٢٠٥.

٢. استاد خليل: سلطنت غزنويان، ص ٢٦٠.

٣. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد دوم، ص ٥٦١. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارس، ص ٧٤.

٤. إسعاد عبد الهادي قنديل: المرجع نفسه، ص ٢٠٦.

فلا يقبل العشق الأنانية وعبادة النفس.

فنحن قد جئنا من هذا المعنى بلا اسم وعلامة^١

استطاع "سنائي" أن يعبر بصدق عن العشق الصوفي في غزلياته بحيث أنه لا يحتمل تأويلاً آخر فهو القائل ما ترجمته:..

لا أريد الدنيا بدون صحبتك ولا أريد الروح بدون رضائك

لو تريد روحى ونفسى لا أريدهما آمنين

أعطيت الروح لخدمتك فأنا لا أريد خدمة بلا مقابل^٢

ويلاحظ من شعر "سنائي" استخدامه المصطلحات الصوفية لأول مرة في الغزل الفارسي بكثرة، حيث أنه جعل الغزل كشكل فنى للتعبير عن الأفكار الصوفية، وغزلياته تمتلئ بكثير من المصطلحات الصوفية، فهو يقول في قصيدة طويلة مطلعها ما ترجمته:..

أيها الحبيب يلزمنا نبيذ بلا تكلف، ينبغي مفتاح لقفل متاعنا هذه الليلة

والآن اجتمع الكأس والسماع والشاهد دفعة واحدة فينبغي تمزيق خرق الإدعاء هذه

معاً^٣

ونلاحظ في هذه الغزلية كثرة المصطلحات الصوفية التي تختلف في معناها الظاهري عن معناها الباطني، فهذه المصطلحات إن فسرت على ظاهرها تعطى معان مغايرة تماماً لما يقصده.

الخلاصة أن "سنائي" استطاع أن يقطع شوطاً بعيداً في تطوير فن الغزل بشكل لم يسبق إليه غيره، وذلك بإدخاله ميدان التصوف، كما أصبح للصوفية على اختلاف طبقاتهم وعلى

١. محمد أبو المجد هلال: فن الغزل في الشعر الفارسي، ص ٣٤٣.

٢. سنائي: ديوانه، باهتمام مدرس رضوي، تهران، ١٣١٣ هـ. ش، ص ٦٨٨.

٣. المصدر السابق، ص ٧١٣.

مر العصور أدب إسلامي رفيع، ومجال واسع في النثر والشعر، وباع طويل في كل أغراض الأدب، ومنزلة عالية في التجديد في معاني الأدب وأخيلته وأساليبه.

(٥) شعر الحكم والمواعظ "الشعر التعليمي"

كانت الحكم والمواعظ من جملة الموضوعات التي نالت اهتماماً كبيراً من الشعراء، وشعر المواعظ هو شعري يحاول أن ينظم نظريات علمية أو اجتماعية أو فنية أو أدبية بما لها من اعتبارات فلسفية، والمعاني الخلقية هي دائماً الموضوع المفضل بالنسبة لشعر الحكم والمواعظ، وعلي هذا فلا بد للشاعر أن يعرف كيف ينقش فكرة في بيت من الشعر محكم الأطراف.

ومع أن "الشاهنامة" نتاج ملحمي تماماً فهي مليئة بالنصائح والمواعظ، هذه النصائح والمواعظ يرد بعضها في المتون الأصلية كجزء من القصص، وهذا النوع نلاحظه بوفرة في القسم الخاص بتاريخ الساسانيين، وخاصة في سيرة "أردشير بابكان" وابنه "شاپور"، وأهم الأقسام الحكمية في "الشاهنامة" نصائح "بزرجمهر" ومجالس "أنوشروان"، وهذه المواعظ والنصائح ترى غالباً في ختام حكايات الملوك والأبطال وحين وفاتهم، وتمتاز نصائح "الفردوسي" بأنها عملية منطقية لا نظرية بعيدة عن الواقع^١.

ومن الشعراء الذين نظموا في هذا اللون "أبو المؤيد عيسى بن عبد الله بن القاسم الغزنوي" (ت ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م)، كان كاتباً بين يدي "عبد الحميد" وزير سلطان "غزة"، كتب ما يزيد على خمسة آلاف بيت من الشعر، ومن شعره قوله:-

وهل هلكت فيه نفوس هوالك

فيا ليت شعري والأمانى خوادع

أيرحمني مولاي أم أنا هالك

فيا ليت شعري يوم يؤذن مالك

أو أسود من قوم وجوه حوالك

إذا أبيض من قوم وجوه منيرة

^١ محمد محمدى: الأدب الفارسي، ص ٢٠٥. إسعاد عبد الهادي قنديل: فنون الشعر الفارسي، ص ٦٩.

وليس ينجي المالكين الممالك

وليس ينجي الظالمين اعتذارهم

وكيف وقد ضاقت على المسالك^١

فكيف قرارى فى عذاب جهنم

كذلك الشاعر "مسعود سعد سلمان" الذى نظم أشعاراً تعليمية تحدث فيها عن أيام الفرس وشهورهم، وعرض صفاتهم فى قالب جميل يوجه فيه مدائح للسلطان أرسلان شاه^٢.

صار شعر المواعظ من أهم آثار شعراء الصوفية، وعلامة بارزة على طريقهم بل صار مسئولية يتحملونها إزاء المجتمع وأفراده، فهناك المنظومات العديدة فى إرشاد الناس وتذكيرهم بالآخرة، وكشف الجوانب السيئة فى الدنيا وزخرفها والدعوة إلى عدم الاغترار بها، وهناك أيضاً القصص التى تنظم للناس على سبيل العبرة والعظة والترغيب فى الخير، وإلى جانب هذا وجدنا قصائد وأبيات مفردة تحمل نفس المعنى وتجربى مجرى المثل بالحكمة والموعظة الحسنة^٣.

ومنذ أوائل القرن السادس الهجرى فتح "سنائى" باباً جديداً فى شعر الحكمة بعد أن طرأ عليه من التصوف ومن انقلاب فى الحال والتفكير، فقد مزج معانية الحكمة العرفانية بالموعظة والنصيحة بعباراته الفصيحة وخيالاته السامية وتعبيراته النادرة المثل، وبلغ من تأثير أسلوبه أن يصعب فى كثير من المواقع قراءة قصيدة له من هذا النوع والوصول بها إلى نهايتها دون تأثر وإنفعال، "فالسنائى" حتى فى حال اهتمامه بالموضوعات العرفانية العميقة يميل فى مثنوياته المشهورة مثل "سير العباد" و"طريق التحقيق" و"حديقة الحقيقة" إلى

^١. عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر، ج ٢، ص ١٣٠، ١٣١.

^٢. طلعت أبو فرحة: مسعود سعد سلمان، ص ٢٩٤.

^٣ محمد السعيد جمال الدين، أحمد حمدى الخولى: دراسات ومختارات فارسية، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت، (د.ت)، ص ١٢٦.

الوعظ والنصح والارشاد، وقد أدت براعته في أشعار الحكمة إلى أن تستحوذ على كثير من اهتمام شعراء أواخر القرن السادس الهجري^١.

ومن شعراء مدينة "غزنة" الذين تناولوا في شعرهم أنواعاً متنوعة من الشعر: "عطاء بن يعقوب بن ناكل الغزنوي" (ت ٤٩١هـ / ١٠٩٧م) أصله من "غزنة"، عاش أسيراً في "لاهور" ثمانى سنوات (٤٧٢: ٤٦٣هـ / ١٠٧٠: ١٠٧٩م) عندما غضب عليه السلطان "إبراهيم بن مسعود" (٤٥١: ٤٩٢هـ / ١٠٥٩: ١٠٩٨م) ثم أفرج عنه عندما ثبتت براءته من تهمة التمرد^٢. له ديوان شعر بالعربية والفارسية لذا أطلق عليه ذى اللسانين، وله كتاباً في التصوف باسم "منهاج الدين"، قال عنه القاضي "معين الدين محمد بن محمود الغزنوي" صاحب كتاب "سر السرور"^٣: "إذا اجتمع الأفاضل في مضمار التفاضل، واتزنوا بمعيار التساجل. أى التسابق. كان هذا الشيخ هو الأبعد إحضاراً، والأرجح مقداراً أقر له بالتقدم رجالات الآفاق وأذعن له بالترجيح فضلاء خراسان والعراق، وقد سافر كلامه من غزنة إلى العراق، ومن ثم إلى سائر الآفاق، والمشهور أن ديوان شعره العربى والفارسى يشتري بخراسان بأوفر الأثمان"^٤. ومن شعره:

صبراً فإحماء الحديد وطرقه	قد صيراه وهو سيف مقضب
صبراً فبعد الليل صبح ساطع	صبراً فبعد العسر يسر يقرب
صبراً فبعد السجن ملك يوسف	وتحقق الرؤيا ووافاه الأب

^١. محمد محمدى: المرجع نفسه، ص ٢٠٧.

^٢. عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر، ج ٢، ص ١٥٤.

^٣. هو أبو العلاء محمد بن محمود بن أبي الحسن النيسابورى الغزنوي، من أهل غزنة، كان إماماً فاضلاً واسع العلم متفنناً مناظراً عارفاً بالأدب مليح المحاوره كثير المحفوظ، صاحب كتاب "سر السرور" الذى جمع فيه شعراء عصره. الصفدى: الوافي بالوفيات، ج ٥، ص ٦.

^٤. ياقوت الحموى: معجم الأدباء، ج ١٢، ص ١٧٠: ١٧٢.

^٥. عماد الدين الأصفهاني: المصدر نفسه والجزء والصفحة.

كان بينه وبين الشاعر "مسعود سعد سلمان" صداقة، وقد ذكره في قطعة الأخوانيات، والتي تبدأ بالبيت الذي يقول فيه:-

يارفاقي يا "عمر" و"منصور" و"عطا" يا من أنتم الثلاثة سماء وهواء وصبا^١

"أبو الفتح بركات بن المبارك"، ولد "بغزنة" سنة (٤٦٦هـ/١٠٧٣م) وتوفي بنيسابور سنة (٥٢٥هـ/١١٣٠م) له مؤلفات عديدة أعربت عن غزارة علمه، ومنها كتاب "الشعر والشعراء" الذي ذكر فيه أعظم الشعراء. له أشعار تدل على سلاسة طبعه ورقة خاطره وسلامة أسلوبه، ومن شعره قوله:-

إذا سل الذوائب، قلت ليل وإن كشف القناع ترى نهارًا

وفي المشتا العبوس إذا تراه تخال عليه من وردٍ صدارًا

أبعد الأربعين إلى التصابي أميل كفى بذاك على عارًا

وحكى أنه حضر دار الشاعر "مسعود بن سلمان" فلم يجده، فكتب على بابها:-

قل لمسعود بن سعد حضر اليوم فزارك

خلقك الموثق عهدًا بركات بن المبارك^٢

لم يكن الازدهار في الشعر خاص بالرجال فقط، ولكن كان للنساء حظ من هذا الازدهار فقد حظي بلاط السلطان "محمود الغزنوي" بمجموعة من النساء الشاعرات اللاتي شاركن الرجل في التعبير عما يجول بالمجتمع من أفكار وآراء، ومنهم السيدة "رابعة بنت كلب القزدارية" شاعرة دار الحريم، جاء شعرها متعدد الأغراض، متنوع الأنماط، وبلغت مبلغًا كبيرًا من الرفعة والاهتمام، وكانت تقضى معظم أوقاتها في نظم وقول الشعر، لذلك حظى بالاهتمام من قبل الغزنويين وكانوا حريصين على اقتنائه.

١. طلعت أبو فرحة: مسعود سعد سلمان، ص ٢٢٧.

٢. عماد الدين الأصفهاني: خريدة القصر، ج ٢، ص ١٤٨.

ومن شعرها في حببها بكتاش باللغة الفارسية قولها ما ترجمته:.

.إنك تجعلني أحتمل العشق بالحيل فأية حجة تبديها أمام الله عز وجل ؟

.فبعشقك لن أرد مورد العصيان وبديني لن أصبر بالمثل إلى الطغيان

.إنني لا أريد النعيم بدونك فالجحيم معك مستساغ

.وبدونك يكون السكر سماً والسم معك يكون عسلاً^١

كذلك كان للشعر وللمرأة الغزنوية دوراً في الجهاد الديني، حيث كانت تحمس المقاتلين بالأشعار التي تنشدها، فقد هجا الشعراء وتغنى النساء بالقصائد الشعرية عندما قبض السلطان "بهرامشاه" على "سيف الدولة الغوري"، وقد أمر بتلوين وجهة باللون الأسود وطيف به شوارع غزنة، بعد أن أركبه بقرة، وقد رد "علاء الدين الغوري" على هذه الفعلة، عندما هاجم غزنة في عهد "خسروشاه"، حيث قبض على الذين أسروا أخاه فألقاهم من على الجبال، وأخذ النساء اللاتي تغنين بهجو أخيه سيف الدين فأدخلهن حماماً ومنعهن من الخروج حتى متن به^٢.

من هذا العرض السريع تبين لنا أن الشعر قد بلغ الذروة بعد أن مر بأدوار نمو وانتعاش تدريجية بدأت في عهد الديوليات المستقلة ثم ازدهر في عصر الغزنويين، وبخاصة في عهد السلطان "محمود" حتى بلغ من تقدم الشعر أن صار ينظم ارتجالاً وأن يجد له سوقاً رائجة، وأصبح أدباً شيقاً في مادته بعيداً في أخيلته سامياً في معانيه، إذ إنه كان ثمرة تلك الأطوار الثقافية وخلاصة تلك الثقافات المتنوعة.

والذي يلاحظ في هذه الحقبة من تاريخ الأدب هو الاعتزاز بالعربية وافتخار الأدباء الفرس بها بحيث نظموا فيها، وقل أن نجد أديباً فارسياً لا ينظم بالعربية حتى أطلق على

^١. نعمة علي مرسى: المرأة المسلمة في آسيا الوسطى في القرنين الخامس والسادس الهجريين، ص ١٠٠،

٢٤٤.

^٢. النويري: نهاية الأرب، ج ٢٦، ص ٩٠.

هؤلاء لقب ذوى اللسانين. كما يلاحظ أن الشعر الفارسي الذى كان حتى أواخر القرن الرابع الهجرى منحصرًا فى النواحي الشرقية من إيران، انتقل منذ هذا التاريخ وبخاصة منذ أوائل القرن الخامس إلى غربى إيران وإلى العراق، وظهر شعراء كبار فى قوس والري وأصفهان، بل أن ظهور مراكز أدبية جديدة غربية دفع بعض الشعراء الشرقيين إلى الذهاب لتلك النواحي، مثل الأسدي، وسيد حسن الغزنوى وغيرهم من الشعراء.

وفى هذا العصر الذى بلغت فيه الحضارة الإسلامية أوجها ظهرت أول ملحمة فى الأدب الإسلامى، وإذا انتقلنا إلى الشعر الغنائى لمسنا براعة التصوير وضخامة الإحساس، أما بالنسبة لأسلوب النثر العلمى فقد اتسع لقضايا الفكر المختلفة، كما ظهر النثر الفنى الذى ترصعه أبيات الشعر ويطبعه الزخرف والبديع.... إننا حين نصل إلى هذا الحد ندرك أن العصر الغزنوى كان حقًا عصر ازدهار الأدب والفكر.

ثانيًا: علم التاريخ^١

دفع القرآن الكريم المسلمين دفعًا إلى مختلف مجالات المعرفة في الكون، ومن تلك المجالات علم التاريخ الذي يسميه أيام الله التي أنعم فيها على من اتبع هديه واستقام على أمره، ودمر فيها من سار في طريق المعصية، أيام الله التي نصر فيها أوليائه وخذل فيها أعداءه، يقول تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾^٢ ولا شك أن الإسلام أسهم في تنمية الوعي التاريخي عند المسلمين، فقد وردت في القرآن الكريم أخبار عديدة وإشارات إلى الأمم السابقة، وذلك لأن حاضر الإنسانية امتداد لماضيها البعيد، ومهاد لمستقبلها المرتقب وعلى المؤمنين أن يلتمسوا العبرة مما مضى ليصونوا يومهم وغدهم، وهل للتاريخ ثمرة إلا هذا؟ قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^٣. فالتاريخ ما هو إلا حوار مستمر بين الحضارات والجماعات تحتلط فيه أحداث الماضي بتطلعات المستقبل، وذلك لأن الإنسان محصلة للعلاقات الاجتماعية التي عاشها، وهو لا محالة يظل يستلهم الأشكال والأنماط لثقافة الجماعة التي ينتمى إليها كما فعل "أبو الريحان البيروني" في كتبه التاريخية.

حظي علم التاريخ بمكانة بارزة في الحضارة الإسلامية، كما لعب دورًا رئيسيًا في تكوين الثقافة الدينية التي هي من مرتكزات الحياة العقائدية للمجتمع الإسلامي، فقد كان تأثيره على علم الحديث أكثر من تأثيره على أي علم آخر، إذ كان الرواة في معظم

١. التاريخ لغة يعني التعريف بالوقت، واصطلاحًا هو علم معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع أشخاصهم وأنسابهم ووفياتهم إلى غير ذلك، وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك وغيرهم، والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية وفائدته العبرة بتلك الأحوال. طاش كبري زادة: مفتاح السعادة، ج ١، ص ٢٠٤. رحيم كاظم الهاشمي، عواطف محمد: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٧٧.

٢. الروم: (٤٢)

٣. يوسف: (١١١)

الأحيان رواة حديث وتاريخ في آن واحد، كما أن أساليب النقل وترتيب المواد كانت متماثلة في كلا العلمين اللذين كانا يعتمدان علي الرواية الشفهية بالدرجة الأولى، بل إن المجموعات الأولى للحديث والتاريخ كانت واحدة، والمؤرخون كانوا هم أنفسهم محدثين في الوقت ذاته فالروايات المنقولة. وإن لم يكن لها أدنى علاقة بالحديث. كانت تؤخذ على محمل الجد وكأنها من روايات الحديث، إذ كان على الراوى أن يجيء بالسند أو على الأقل أن يورد كشفًا كاملاً برواته الذين نقل عنهم الخبر الذى هو بصده وعليه أن يثبت أسماء رجاله^١.

كان التاريخ واحدًا من العلوم التى تطورت دون تأثير يذكر بالمصادر الغير إسلامية، علي عكس الكثير من العلوم الأخرى التى كان التأثير الغير إسلامى واضحا على الأقل في نشأتها^٢. وبالنسبة للمؤرخ فلا بد أن يكون عالمًا عدلاً عارفاً بحال من يترجم له ليس بينه من الصداقة ما قد يحمله علي التعصب له، ولا من العداوة ما قد يجعله يغض من قدره^٣.

كان للتاريخ دوره في الحياة الاجتماعية والسياسية والإدارية والأدبية للدولة الإسلامية، وليس أدل على المكانة الكبيرة التي يحتلها علم التاريخ في الثقافة الإسلامية من ظهور تلك المؤلفات التاريخية التي تعد بالمئات.

ولأهمية ذلك الدور فقد عنى به المسلمون وبلغت تلك العناية قمته في القرن الرابع الهجري^٤، وامتدت تلك العناية حتى القرن الخامس الهجرى، فقد أدرك الغزنويون قيمة التدوين التاريخي وأهمية الأعمال التاريخية^٥. لذلك زخر العصر الغزنوي بطائفة كبيرة من أعلام المؤرخين وخاصة بعد أن نشطت حركة الترجمة من اللغات المختلفة إلى اللغة

١. منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٢٢.

٢. عبد الله منسى العمرى: تاريخ العلم عند العرب، ص ٢١٩.

٣. السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص ٧٤.

٤. ناصر محمد عبد الرحمن رمضان: الاتصال العلمي في التراث الإسلامى، ص ٦١.

٥. البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٣٥.

العربية والفارسية، وبدأ المؤرخون يصنفون الكتب في مختلف العلوم والفنون، ومن أشهر مؤرخي مدينة "غزنة".

"العتبي"

هو "أبو نصر محمد بن عبد الجبار" (ت ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م) كانت أسرته ذات شأن ونفوذ في خراسان، ذهب العتبي إلى نيسابور وعمل كاتبًا عند "أبي علي محمد بن محمد سميجوري" وإلى نيسابور أيام السامانيين، ثم توجه إلى "غزنة" وعينه "سبكتكين" كاتبًا له، أما السلطان "محمود" فعينه علي البريد "بكنج رستاق".^١

يعتبر "العتبي" المؤرخ الأول للدولة الغزنوية لأنه كان يتابع تأسيس هذه الدولة علي يد مؤسسها "سبكتكين" خطوة بخطوة^٢، له مؤلفات عديدة ومن أهمها كتاب "تاريخ اليميني" أو "تاريخ العتبي" الذي نسبه إلى لقب السلطان "محمود" "يمين الدولة". وقد تناول في هذا الكتاب تاريخ الدولة الغزنوية، فترجم فيه "لسبكتكين" وأوضح كيفية تأسيس الدولة، ثم أبرز أهم الوقائع والأحداث التي حدثت في أيام السلطان "محمود". وفي مقدمة كتابه يقدم الغرض من تأليفه لهذا الكتاب فيقول: "رأيت أن أمتع أهل العراق بكتابه هذا الباب عربي اللسان، وكتابي أهل البيان يتخذونه سميًا علي السهر رئيسًا في المقام والسفر...". وعن محتويات الكتاب يقول: "مبتدئًا بذكر الأمير الماضي أكرم الله مآبه وأجزل ثوابه من حيث نشأت نبعته، وتفرعت دوحته إلي أن استعان به الأمير أبو القاسم نوح بن منصور الساماني، وما جرى من الفتوح علي يديه متبعاً بذلك من وقائع السلطان الأجل يمين الدولة، وأمين الملة في الهند والترك، وما أتيح له فيها من النصر والفوز، وما

^١. بدر عبد الرحمن: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي، ص ٣٧٥.

^٢. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٣٥٣. أركين رحمة الله يف. عبد الله يولداشيف: الحضارة

الإسلامية في تاجيكستان، ص ٨٨.

^٣. الثعالبي: يتيمة الدهر، ج ٤، ص ٤٥٨.

يتصل به من أخبار ولاية الأطراف والله ولي المعونة علي درك المنشور وإصابة الغرض لمقصود بمنه وجوده^١.

ويعد الكتاب بحق أكبر مصدر لتاريخ هذه الدولة في تلك الفترة، وقد صاغه في أسلوب أدبي مسجوع لذلك حاز شهرة كبيرة بين الكتب الأدبية والتاريخية^٢، وقد عني بشرحه الكثير من الأدباء منهم الشيخ "أحمد المنيني" الذي سمي كتابه شرح "المنيني المسمي بالفتح الوهبي علي تاريخ أبي نصر العتبي". وله أيضًا كتاب "لطائف الكتاب" ومن أشعاره..

علق كريم لا يجاوزه الأمل

شيبى عزيز غير أن شيبتي

بياض عينيه وحسبك ذا المثل^٣

من ذا الذي ساوي سواد لحاظه

"الثعالبي"

هو "أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل" (ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م)^٤ شاعر ومؤرخ وفقيه صنف في التاريخ كتاب "غرر أخبار ملوك الفرس" ألفه بالعربية باسم الأمير نصر بن ناصر الدين سبكتكين. وقد ألف هذا الكتاب ما بين عامي (٤١٢: ٣٩٠ هـ / ١٠٢١: ٩٩٩ م)^٥.

^١. العتبي: تاريخ اليميني، ج ١، ص ٥٣.

^٢. أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ١، ص ٢٨٦. محمد الرفاعي: الخلافة العباسية، ص ٢٠٤. عبد السلام عبد العزيز فهمي: موضوعات الشر الفارسي، ص ١٠١.

^٣. الثعالبي: يتيمة الدهر، ج ٤، ص ٤٥٨، ٤٦٧.

^٤. بدر عبد الرحمن: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي، ص ٣٦٨.

^٥. استاد خليلي: سلطنت غزنويان، ص ٣٤٧.

"البيروني"

هو "أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني" (ت ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م)^١. من مشاهير المؤرخين في الدولة الغزنوية، والذي يقول عنه الفرس أنه هو الذي وضع حجر الأساس لعلم التاريخ، وبذل جهوده الجبارة في سبيل نشر الثقافة الفارسية في المدن والقرى لكل إقليم يزوره^٢.

فالتاريخ عند "البيروني" هو عرض منظم ومكتوب للأحداث المتعاقبة، فهو لا يسجل الأحداث الماضية والأخبار الباقية فحسب، بل يحاول الكشف عن أسبابها وبيان ما بينها من ترابط وتداخل بحيث تشكل موضوعاً واحداً يقبله العقل. يقول المؤرخ الفرنسي "كلود كاهن" عن أسلوب "البيروني" في التاريخ "نحن ندين للبيروني باستعراض زمني لجميع الشعوب بالمعرفة، أرفقه بمعلومات في غاية الأهمية عن أعيادهم ودياناتهم، كما ندين له بكتاب عن بلاد الهند، وفي هذا الكتاب معلومات قيمة لا تزال ثمينة إلى يومنا هذا"^٣.

وتتمثل عبقرية "البيروني" في منهجه التاريخي في ربط الأحداث بعضها ببعض، مما يجعل التاريخ حياً كما لو كنا نعيشه، كما أنه اتصف بعدم التحيز والبعد عن التأثير بالعوامل الخارجية في كتابته التاريخية، وتجنب الشهرة والجاه لإدراكه أن الحقائق التاريخية التي قد يكشف عنها تعدل كل ذلك أو تزيد، كما تميز بروح نقدي ينفذ إلى صميم الأحداث والأخبار، فيستخلص الصدق والحق منها، ويطرح ما دون ذلك، وكان إلى هذا ذا عقل

^١. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٣، ص ٣٠.

^٢. محمد أبي الصلاح: البيروني يسيح في الهند، ص ٣٧.

^٣. كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين القاسم، بيروت، دارالحقيقة، ١٩٧٤م، ص ٢٣.

مرتّب، استطاع أن يميز بجلاء بين الحوادث وأن ينسق بين أنواع الحقائق، ويحدد العلاقة بين حوادث التاريخ في الزمان والمكان ويربط بينها ربطاً علمياً^١.

كان لمنهج "البيروني" خطوات محددة التزمها بدقة في مباشرة البحث في شئون المجتمع والإنسان تتمثل فيما يأتي:-

تحرى الدقة في جمع المادة التاريخية، وفي ذلك يقول البيروني "لما كانت الأخبار وأحوال القرون الماضية معرضة بطبيعتها لزيّف المخبرين، ومختلطة فعلاً بالتزويرات والأساطير لبعد العهد بيننا وبينها، فالأولى أن لا نقبل من قولهم في مثله إلا ما يشهد به كتاب معتمد على صحته"^٢. بهذه الروح ألح على المؤرخ أن ينزه نفسه عن العوارض المروية لأكثر الخلق، ويتخلص من الأسباب المعمية لصاحبها عن الحق "كاتباع الهوي والتعصب"^٣، فهي كلها تحول عن تلمس الحقيقة وتدعوا إلى مجانبة الصواب^٤، ومن المؤكد أن "البيروني" لم يكن نظرياً فيقر منهجاً دون أن يطبقه كما فعل غيره من الباحثين بل زاوج نظره وعمله مزواجه تؤكدها سائر كتبه بحسه الناقد وميله إلى الوضوح^٥.

أما الخطوة الثانية فتتمثل في ذكر المصادر التي اعتمد عليها في كتابته التاريخية، وسبب هذا تأثره بعلم الحديث الذي يعتمد أشد ما يعتمد على السند، ويمتاز "البيروني" أنه كان بالغ الدقة في تحديد مصادر مادته، والتي تنوعت بين مصادر عربية وفارسية ويونانية وسريانية وخاصةً أنه كان يعاني في الحصول على تلك المصادر، وقد أشار إلى ذلك في كتابه عن الهند^٦.

١. علي الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٣٢٣.

٢. البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٨م، ص ١٦.

٣. المصدر السابق، ص ٤.

٤. المصدر السابق، ص ٨٠.

٥. علي الشابي: المرجع نفسه، ص ٣٢٤: ٣٢٧.

٦. البيروني: تحقيق ما للهند، ص ١٦.

وهو أحياناً يذكر المصدر، ولا يذكر النص مكتفياً بإحالة القارئ إليه ففي كتابه "الآثار الباقية" يري من العبث التفصيل في موضوع تعيين تواريخ الهلال، لأنه موضوع صعب يحتاج إلى إسهاب، وأشار على القارئ إذا أراد المزيد بالرجوع إلى زيج "البتاني" أو زيج "حبش الحاسب"^١، وإذا نسى اسم المصدر فإنه يصرح بذلك فقد نقل نصاً عن نظرية الهنود في دورة السنين ونبه إلى أنه نسى المصدر الذى نقل عنه^٢.

يعتبر كتاب "الآثار الباقية عن القرون الخالية" أهم كتبه التاريخية والذي ألفه سنة (٣٩٠. ٣٩١هـ / ١٠٠٠م)^٣. ألفه باسم الأمير شمس المعالي "قابوس بن وشاكير" حاكم جرجان . حكمها من سنة (٣٦٦هـ / ٩٧٦م حتى سنة ٣٧١هـ / ٩٨١م) ثم من سنة (٣٨٨هـ / ٩٩٨م حتى سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م).^٤ وهذا الكتاب عبارة عن موسوعة مهمة تتسم بالجمع والنقد والاستنباط، فقد جمع فيه تراث أمم مختلفة منذ بداية الخليقة حتى عهده، ولم يكتف بجمع الكثير من المعارف الإنسانية، بل راح يصنف هذا التراث جامعاً في مكان واحد الآراء المتعلقة بموضوع واحد، وقد عمد "البيروني" إلى المقارنة والنقد، فهو يرى أن الخطوة المباشرة التي تعقب جمع المادة وترتيبها من كتب الملل وأصحاب الآراء قياس الأقاويل والآراء في إثبات ذلك بعضها ببعض.

وتعرض مقدمة الكتاب منهج "البيروني" العلمي القائم على الأخذ عن السلف والنقد المجرد من الهوى، ثم البحث في اليوم والشهر والسنة عند مختلف الأمم ووجوب اعتماد اليوم أساساً للبحث لأن اليوم وحدة زمنية ثابتة، أما الأشهر والسنون فيختلف مقدارها باختلاف الأمم التي تعتمد عليها^٥. لذلك اهتم بالتقاويم وما طرأ عليها من تعديل فوضع

^١. البيروني: الآثار الباقية، ص ٢٣٢.

^٢. البيروني: تحقيق ما للهند، ص ٢٦٥.

^٣. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٣، ص ٣٠. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والاجتماعي، ج ٣، ص ٤١٠. بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج ٥، ص ١٩٧.

^٤. نظام عروضي: جهاز مقالة، ص ١٤٦.

^٥. البيروني: الآثار الباقية، ص ٤.

جداول تقارن بين أشهر الفرس والروم والهنود والآثراك^١، هذه الجداول تمكن المطلع من استخراج التواريخ بعضها من بعض بطريقة عملية سهلة، وهناك جداول أخرى لملوك آشور وبابل وملوك الكلدان واليونان، كما وضع جداول لملوك الفرس منذ نشأة مملكتهم حتي نهايتها، وتحدث عن الأعياد وأسمائها وتواريخها المختلفة^٢.

ومن البحوث الطريفة التي تناولها هذا الكتاب فصل كتبه البيروني وعرض فيه لطريقة تسطيح الكرة الأرضية، وهذا الفصل يعد الأول من نوعه، إذ لم يُعرف أن أحدًا كتب فيه قبله. لذلك اعتبر البيروني أنه أول من وضع أصول الرسم علي سطح الكرة الأرضية، ولا يخفى ما لهذا من أثر في تقدم الجغرافيا والرسم، وقد عالج فيه نظرية دوران الأرض حول نفسها، كما حدد فيه خطوط الطول ودوائر العرض بدقة متناهية^٣.

لهذا يعتبر هذا الكتاب مرجعًا هامًا وعظيمًا من مراجع التاريخ العام والإسلامي، لأنه حفظ من الضياع الكثير من الروايات والآراء التي ضاعت أصولها وأصبح الوصول إليها أمرًا متعذرًا، ثم إنه كفى الباحثين مشقة مطالعة مئات الكتب إذ قام بجمعها وتنسيقها في كتاب واحد.

أما كتابه الثاني فهو كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، والسبب في اختيار هذا العنوان أنه يعرض مقولات الهنود على علاقتها ليشارك القارئ في الإلمام بزوايا التفكير الهندي ويترك له أمر نقدها. وهذا الكتاب ترجمه الدكتور "سحاو" وأشار في مقدمته إلى "أن الباحث الحديث في أيامنا لو بدأ دراسة اللغات السنسكريتية والهندية وأعانتها العلوم والآداب المختلفة علي ذلك لبقى عددًا طويلاً من السنين دون أن

١. أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ١، ص ٢٩٠. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٣٣٨.

٢. البيروني: المصدر نفسه، ص ١٢٨: ١٣٤، ١٤٥: ١٥٢، ٣٨٥.

٣. محمد الإبراشي، أبو الفتوح التوانسي: سلسلة تراجم أعلام الثقافة العربية ونوابغ الفكر الإسلامي، ص ١٢٧.

٤. Bosworth: The Development of Persian Culture under the Early Ghaznavids, p٣٨.

٥. البيروني: تحقيق ما للهند، ص ١٥.

يتمكن من معرفة تاريخ الهند القديم بمثل الدقة والبراعة اللتين وصل إليهما "البيروني" في تاريخه عن الهند^١.

وترجع أهمية الكتاب إلى أن "البيروني" قام بدراسة المجتمع الهندي دراسة تاريخية اجتماعية، حيث يتضح من اسم الكتاب أنه لم يكن مجرد تاريخ لبلاد الهند وحضارتها ولا مجرد وصف معالمها وعادات أقوامها وتقاليدهم علي غرار ما يسجله أصحاب الرحلات من ملاحظات وما يروونه من عجائب الأخبار والأساطير، وإنما هو في الواقع بحث ميداني ونظري عميق للتعرف علي حقيقة معتقداتهم وتصوراتهم ومفاهيمهم، وكشف أوجه الشبه والاختلاف بينها وبين ما هو عند غيرهم من الأمم وخاصة اليونان والنصارى والمسلمين. فللهند مقولات خاصة بغير مقولات غيرها، كما هو ظاهر من عبارته "في تحقيق ما للهند" والتي وضعها عنواناً لمؤلفه، فقد استخدم "البيروني" مصطلح المقولات بمعنى المفاهيم والمعايير التي أتفق عليها الهنود لضبط تصوراتهم ومنطق تفكيرهم^٢. وهو في أثناء ذلك لا يكتفي بالحكاية عنهم فقط، إنما يقارن ما بين ما عندهم وما عند غيرهم من الأمم خاصة اليونانيين. والكتاب في الحقيقة ينتمي إلي طراز فريد في بابه، وعلى الرغم مما يحتويه من تاريخ الهند وشرح لفلسفتها وعقائدها ودياناتهم، فهو يحوي مادة جغرافية وفلكية قيمة حيث يضم الفصل الثامن عشر ملاحظات متفرقة عن الأرض والأنهار.

أما الموضوعات التي تناولها الكتاب فهي:-

الفصل الأول: مقدمة عامة، الفصل الثاني وحتى الحادي عشر: آراء دينية وفلسفية، الفصل الثاني عشر وحتى السابع عشر: أدب وعادات وخرافات، الفصل الثامن عشر وحتى الحادي والثلاثين: جغرافية وصفية ورياضيات، الفصل الثاني والثلاثين وحتى الثاني والستين: تاريخ وفلك، الفصل الثالث والستين وحتى السادس والسبعين: قوانين

^١. براون: تاريخ الأدب في إيران، ص ١١٧.

^٢. محمد الأنفر: نظرية المعرفة ومدى إسهام أبي الريحان البيروني في تحديد إطارها الاجتماعي، ضمن كتاب تونس وإيران قرون من التلاقح الحضاري، الدار التونسية للنشر، ١٩٧١م، ص ٧٤.

وعادات وأعياد، الفصل السابع والسبعين وحتى الثمانين: تنجيم^١. ويمكن تقسيمه بطريقة أخرى إلى ثلاثة أقسام قسم خاص بالفلك، وقسم خاص بالرياضيات، وقسم خاص بالفلسفة^٢.

أما طريقة العرض فتشابه في جميع الفصول، فالبيروني يبدأ بسوق ملاحظات عامة تعقبها مقتطفات موثوق بصحتها من المؤلفين الهنود، ثم ينظر في المسائل التي عالجوها ويقارنها بنظريات المسلمين واليونان والفرس معلقاً على هذا بملاحظاته الشخصية بشكل مستقل.

ويدل هذا الكتاب وكتاب الآثار الباقية علي سعة علم "البيروني" وإلمامه الدقيق بلغات الهند وتاريخها وثقافتها وفلسفتها الدينية، وقد أفاد بهذين الكتابين اللغة العربية، فأكسبها مرونة وطواعية في التعبير عن حقائق التفكير الهندي.

خلاصة القول أن "البيروني" كان مؤرخاً ثقة يمتاز بعقلية الفيلسوف وبصيرة العالم، وكانت غايته الكشف عن أخبار الأمم الغابرة حيث كان يدرس ما خلفوه لنا من علم أو دين أو أدب لازال حياً فنياً، كما أنه استبعد الخرافات عن منطق الأحداث التاريخية، وبحث عن عللها الخفية وكان يطالب العقل بتطهيره من المفاهيم السابقة والأحكام المباشرة للوصول إلى الحقيقة التاريخية^٣، كما أنه كان يقوم بالتعرف علي حضارة الآخر مع احترام كامل لحضارة الغير، وعدم الإحساس بالنقص أمامها، ثم تمثلها ومقارنتها مع غيرها، والرد عليها بوضعها في إطار ثقافة الأنا، كما يقوم بالتعاطف المسبق مع الموضوع المقارن من أجل فهمه والغوص فيه، فالحضارة كلها علي مستوى واحد من الإحترام^٤.

^١. ألدوميلي: العلم عند العرب، ص ١٩٢.

^٢. عبد الحليم محمود: الفلسفة الهندية مع مقارنة بفلسفة اليونان والتصوف الإسلامي (مع فصول من كتاب تحقيق ما للهند)، ص ٨.

^٣. محمد عبد الحميد الحمد: حياة البيروني، ص ١٩٠، ٢٧٩.

^٤. حسن حنفي: من النقل إلى الإبداع، ج ١، ص ١٠٨.

"الكرديزي"

هو "أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك بن محمود" (ت ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م)، عاش في بداية حياته في "غزنة" وتعلم على علماء عصره، وهو ممن أرخوا للدولة الغزنوية والذين كتبوا عن حوادث وسنوات سلاطين هذه الدولة، وصنف في ذلك كتاب "زين الأخبار" باللغة الفارسية تيمناً بالسلطان "عبد الرشيد بن محمود" الملقب "بزين الدولة"، وهو مصدر هام بين المصادر التاريخية لكونه يحتوى على بعض المعلومات التي لم توجد في مصدر غيره، تناول فيه تاريخ إيران من العصور القديمة حتي منتصف القرن الخامس الهجري، وأبرز في دراسته للعصر الغزنوي الأحداث السياسية التي وقعت في عصر السلاطين الأوائل، كذلك أشار إلي بعض النواحي الإدارية والحياة الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك العصر من قبيل الاحتفالات بالأعياد كالنوروز والمهرجان، ويذكر "الكرديزي" في حديثه عن هذه الوقائع التي وقعت في العهد الغزنوي أنه رآها رأي العين^١.

و"الكرديزي" مؤرخ أمين في تاريخه فمثلاً في القسم الخاص بالأعياد نجده يذكر في الجداول اسم العيد وعند الشرح والتفسير لا يجد أدنى حرج في أن يصرح ويقول: "ولم أجد شيئاً عنه في الكتب"^٢، وتعتمد كتاباته على كتاب السلامي "تاريخ خراسان" المفقود^٣.

أما قيمة الكتاب الأدبية، فهو كتاب رفيع من حيث أسلوب الكتابة الفارسية، فهو نشر في غاية السلاسة والرقّة، ومن خصائص أسلوبه رعاية جانب الإيجاز، وذكر رؤوس الحوادث وتجنب الإسهاب والإطناب وعدم الدخول في الجزئيات.

^١ الكرديزي: زين الأخبار، ص ٣: ٥. عبد السلام عبد العزيز فهمي: موضوعات النثر الفارسي، ص ٩٢. Bosworth: The Later Ghaznavids, p٥٧.

^٢ الكرديزي: المصدر نفسه، ص ١٣.

^٣ حسين مؤنس: موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، دار مطابع المستقبل، (د.ت)، ص ١٥٢.

"البیهقي"

هو "أبو الفضل محمد بن حسين البیهقي" (ت ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م)^١، نشأ في مدينة "نيسابور" ودرس على أيدي العلماء و الفقهاء حتى نال منهم الثقافة في شتى العلوم وخاصة علوم القرآن والحديث، كما ارتبط برجال العلم والأدب بروابط وثيقة، التحق "البیهقي" بالعمل في ديوان الرسائل كتلميذ لأبي نصر بن مشكان رئيس الديوان في عصر السلطان "محمود" وابنه السلطان "مسعود"، وبعد وفاة أستاذه لم يرتق إلى منصب رئاسة ديوان الرسائل وذلك لصغر سنه، فلبث في منصبه كمعاون "لأبي سهل الزوزني"، وظل يعمل في الديوان حتى أصبح رئيساً له في عهد السلطان "عبد الرشيد" ثم اعتزل الحياة الإدارية بعد خروجه من السجن أيام السلطان "فرخزاد" وعكف في بيته علي القراءة والتأليف حتى وفاته^٢.

ومن أشهر كتبه ذلك الكتاب الذي ألفه عن تاريخ السلطان "مسعود" والذي أطلق عليه بعض المؤرخين "تاريخ المسعودي" أو "تاريخ البیهقي". وقد كتبه في ثلاثين جزءاً، غير أن الذي وصل منه إلينا شيء من الجزء الخامس والأجزاء السادس والسابع والثامن والتاسع بكاملها وبداية الجزء العاشر^٣.

بدأ البیهقي في كتابة هذا التاريخ عام (٤٠٩ هـ / ١٠١٨م) وسجل فيه الوقائع التي وقعت منذ عهد سبكتكين مؤسس الدولة الغزنوية إلى عهد السلطان "إبراهيم"، أي خلال أكثر من قرن من الزمان، شاهد البیهقي بنفسه وقائع تسعة وثلاثين عاماً من هذه المدة وسمع بقية الوقائع من أساتذته ومعاصريه، وكان يسمى كل جزء من الكتاب باسم

^١ - John Perry: Iranian Nationality and the Persian Language, p٤٨.

^٢ البیهقي: تاريخ البیهقي، ص ٥. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ١٧. استاد خليل: سلطنت غزنویان، ص ٣٠٦.

Arberry: Classical Persian Literature, p٢٤.

^٣ عبد السلام عبد العزيز فهمي: موضوعات الشر الفارسي، ص ١٠٠.

العصر الذى يتناوله فسمى الجزء الأول باسم "تاريخ ناصرى" والثاني "طبقات محمودى" والثالث "طبقات مسعودى"^١.

يعد هذا الكتاب أهم مرجع في تاريخ الدولة الغزنوية وخاصة فترة حكم السلطان مسعود، الذي كان يناضل من أجل الإبقاء على أملاكه في خراسان بعد الأحداث السياسية التى توالى على الدولة نتيجة الصراع الذي وقع بينها وبين السلاجقة، ويحتوى الكتاب على معلومات قيمة حول الأوضاع العامة لتلك الفترة مثل التنظيمات العسكرية والإدارية والدواوين والفرق السياسية وطريقة استقبال ممثلى الدول المجاورة، وتنظيم الوثائق والمستندات السياسية والفصل بينهم، ومراسم الزواج بين الأمراء والشخصيات البارزة في تلك الفترة، ومسابقات الصيد بين الملك وحاشيته، ومراسم تتويج الملوك وارتداء الوزراء والأمراء الخلع، وكثير من القضايا والخصائص الاجتماعية والسياسية لتلك الفترة، والذى يقرأ هذا الكتاب فإنه يشعر بسعة اطلاع مؤلفه، وعمق ثقافته وإحاطته الكاملة باللغتين العربية والفارسية^٢.

وهذا الكتاب وضع له البيهقي منهجاً التزامه بدقة، وقد أقام هذا المنهج على ما يأتى..

يعترف البيهقي أن أول خطوة في كتابة التاريخ تتمثل في جمع المادة من أصولها، وتاريخه يكتسب أهمية من هذه الناحية، ذلك أن منصبه مكنه من أن يعتمد أساساً على وثائق الدولة، يقول في ذلك: "ولم يكن أحد من الكتاب واقفاً على هذه الأحوال سوى أستاذى أبى نصر الذى كان يعد المسودة وأقوم بنسخها. وكانت هذه القاعدة طوال حياة أبى نصر فيما يختص بكتب ملوك الأطراف والخليفة وخانات تركستان وبكل ما هو هام من أعمال الديوان.... والشاهد العدل على ما قلت هو ما لدى من التقاويم، فكلها ناطق بهذه

١. حربى أمين سليمان: النثر الفارسي والتأثير العربي في العصرين الساماني والغزنوي، ص ٥٠. محمد السعيد جمال الدين: دراسات ومختارات فارسية، ص ٦٠.

٢. رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ٦٤. مرتضى راوندی: تاريخ اجتماعى ایران، جلد هشتم، بخش اول، ص ٢٥. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در ایران، جلد دوم، ص ٨٩١.

الأخبار"¹. أما إذا أعوزه البحث إلى السماع، اشترط كالمحدثين أن يكون الرجل ثقة صادقاً يؤيده العقل، أو إلي كتاب وجب أن تكون أخباره علي صورة لا يردّها العقل ويؤمن بها السامع ويستمتع إليها العقلاء ويتقبلونها. كما أنه لا يقبل خبراً إلا بعد تمحيصه، لذلك كان يهزأ من العامة الذين يميلون إلي قبول أباطيل مستحيلة كأخبار العفاريت والجن وغير ذلك من الخرافات².

أما من الناحية الفنية الأسلوبية، فإن الكتاب يمثل أكثر من عصر، فمعظم المنقولات كتبت بأسلوب أصحابها مع الإشارة إليهم، وعموماً فإن نشر الكتاب كتب بأسلوب سهل تغلب عليه صبغة النثر العربي من حيث تركيب الجمل وكثرة الألفاظ والعبارات والاقتراسات العربية، فالكتاب كان مرآة صادقة للأسلوب السائدة في عصر البيهقي، هذا الأسلوب الأدبي الرائع ساعد علي انتشار الكتاب، وسادت طريقة البيهقي في الكتابة وأصبحت طابع النثر الفارسي في الكتب التالية بشكل أوضح³.

مما سبق يتضح أن البيروني والبيهقي سبقا الغرب بقرون عدة إلي ابتكار المنهج التاريخي ووضع أصوله، والأكثر من هذا أنهم لم يكونوا نظريين يضعون النظرية ولا يتمثلونها عملياً كشأن غيرهم، بل زاوجوا بين إبتكارهم هذا المنهج وتطبيقه في تأليفهم بدقة، ولم تكن الوفرة هي التي تميزت بها الثقافة الإسلامية في القرن الرابع والخامس الهجريين، بل إن المنهج أيضاً قد وجد طريقة إليها، لهذا تكتسب هذه الفترة أهمية خاصة في تاريخ الثقافة الإسلامية فقد جمعت بين السعة والعمق على درجة لا تصادفنا فيما عداها⁴.

¹. البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٦٠٥.

². المصدر السابق، ص ٧٣٢.

³. حربى أمين سليمان: النثر الفارسي والتأثير العربي في العصرين الساماني والغزنوي، ص ٥١. ذبيح الله

صفا: تاريخ سياسى واجتماعى وفرهنكى إيران، ص ١٦٢.

⁴. علي الشابى: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٣٣٥.

ثالثاً: علم الجغرافيا^١

احتوى القرآن الكريم على العديد من الآيات التي تشير إلى بعض الظواهر الجغرافية كذكر الجبال والأودية والأنهار والرياح والسحاب والأمطار، يقول تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^٢ وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾^٣.

ويتضح من تلك الآيات دعوة القرآن الكريم للعقل الإنساني للعمل والبحث والتعمق في دراسة الظواهر الجغرافية، والاستفادة منها وتسخيرها لخدمته، كما تدعوه إلى دراسة كل ما يحيط به من أجل التعرف على أسرار هذا الكون والنظام الدقيق له، والذي يجعل الإنسان يدرك عظمه الخالق وقدرته.

ذلك ما دفع المسلمين إلى دراسة الجغرافيا، بالإضافة إلى ذلك أن بعض العلوم تتطلب تعين خطوط الطول والعرض لكل موضع في الأرض، ثم أن الرحلات التجارية التي قام بها المسلمون والأخبار التي عادوا بها كان لها تأثيرها في إثارة اهتمام القوم للاطلاع على أسرار البلدان والشعوب الأخرى، كذلك ساهمت الرحلات العلمية التي قام بها الجغرافيون في زيادة المعلومات الجغرافية، وصححت آراء خاطئة وأخطاء شائعة،

^١. يمكن تقسيم العلوم القديمة التي تهتم بدراسة الكرة الأرضية إلى علمين رئيسيين هما: علم دراسة سطح الكرة الأرضية (الجغرافيا)، وعلم دراسة باطن الكرة الأرضية (الجيولوجيا). أما بالنسبة لعلم الجغرافيا فهو علم يتعرف به على أطوال وعروض البلدان الواقعة فيها وأطوالها وعدد مدنها وجبالها وبحارها وأنهارها. وكلمة جغرافيا كلمة يونانية معربة وتعني علم تقويم البلدان أو علم وصف الأرض والمؤلفات التي ألفها المسلمون كانت تحمل عنوان البلدان أو المسالك والممالك. (كبرى زاده: مفتاح السعادة، ج ١، ص ٣٢٠. أحمد عطيه الله: القاموس الإسلامى، ج ١، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٦١٥. أحمد فؤاد باشا: التراث العلمى للحضارة الإسلامية، ص ١١٠. عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٣١)

^٢. النحل: (١٥).

^٣. الحجر: (٢٢).

واستطاع الجغرافيون أن يتقدموا خطوات عما وصل إليه الأقدمون، فاستطعوا أن يحددوا بدقة متناهية الموقع الجغرافي للبلدان الهامة بالنسبة لخطوط الطول ودوائر العرض، كما قاموا بكتابة تقارير مفصلة في وصف البلدان التي زاروها وبهذا بدأ علم الجغرافية يأخذ شكلاً علمياً^١.

وصلت الدراسات الجغرافية إلى قمة ما وصلت إليه الجغرافيا في الفترة ما بين القرن الرابع الهجري حتى نهاية القرن السادس الهجري، وقد حظى القرن الرابع وحده بأكبر عدد من المؤلفين في الجغرافيا^٢، الذين أصبحوا أقدر الناس على علم الجغرافيا بفضل أبحاثهم التي قامت على منهج علمي دقيق، يعتمد على ما أرساه العلماء من قواعد تقوم على أن الأرض مستديرة وأنها تشغل المركز الرئيسى للكون، وبفضل ما توفر من معلومات الرحالة الذين جابوا الدنيا في سبيل الحصول على جمع معلومات تتيح لمن بعدهم أن يدرسوا علم الجغرافيا على أسس وقواعد ثابتة.

وكما تحدثنا قبل ذلك من أن العلماء المسلمين قد اتبعوا أسلوب التجربة والبرهان في كافة بحوثهم وعلومهم، فإننا نرى أن معظم الجغرافيين المسلمين قد طبقوا الأسلوب ذاته وإلى أقصى حد في أغلب المؤلفات الجغرافية، فلم يكتف الجغرافي المسلم في تأليفه على ماسمعه أو نقله من الكتب الأخرى، بل أراد أن يطلع بنفسه على كل شيء ليكشف الغامض ويصحح الخطأ، الأمر الذي أعطى تلك المؤلفات أهمية خاصة، لاعتماد مؤلفيها على المشاهدة والمعاينة الشخصية وتمحيص كل خبر أو رواية ورد ذكرها قبل التسليم بها، فالرحلة بالنسبة للجغرافي كالمعمل لأي علم تجريبي آخر^٣.

١. نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، ص ١١. علي فهمي شتا: العالم الإسلامي، مجلة الدارة، العددان الثالث والرابع، ١٩٧٦م، ص ٢٢٣. عبدالله المشوخي: موقف الإسلام والكنيسة من العلم، ص ٨٢.

٢. ناصر محمد عبد الرحمن: الاتصال العلمي في التراث الإسلامي، ص ٧٤.

٣. رشيد الجميلي: حركة الترجمة، ص ٤٣٦.

تميز الجغرافيون المسلمون بنظرتهم العلمية الواقعية لمختلف الموضوعات الجغرافية، مثال ذلك معالجتهم لتأثير الضوابط البيئية والعوامل الجغرافية على حياة الناس وأفكارهم وسلوكهم، ومحاولة الربط بين البيئة والنشاط البشرى، مما جعل بعض الباحثين يشهد لهم بفضل السبق في تناول مبادئ الجغرافيا البشرية الحديثة^١.

أما أهم مميزات المصنفات الجغرافية في تلك الفترة أنها كانت تجمع بين الجغرافية والتاريخ، أو ما يسمى بـ "الجغرافية التاريخية" الأمر الذي زاد من أهمية تلك المؤلفات في بيان أحوال البلدان وأهم خصائصها الجغرافية والتاريخية في آن واحد.

بالإضافة إلى ما سبق فقد تفننوا في رسم الخرائط، والتي كانت في ذلك الوقت في غاية الدقة والإنقان، حيث وضحوا عليها مواقع البلدان، وقد اعتمدوا في أول الأمر على التراث اليوناني، إلا أنهم سرعان ما اعتمدوا على أنفسهم في رسم خرائطهم الجديدة معتمدين في ذلك على تجاربهم الخاصة ورحلاتهم وأسفارهم في هذا الميدان، الأمر الذي أعطى هذا القسم من أقسام الجغرافية عندهم طابعاً إسلامياً صرفاً لا أثر فيه للنقل والترجمة^٢.

كما كان لهم دوراً كبيراً في تطور الجغرافية البحرية أو علوم البحار^٣، حيث أدخلوا تطويرات مهمة على آلات الرصد المستخدمة في الملاحة كالأسطرلاب وآلة الربع، وكانوا أول من استخدم البوصلة في الملاحة في أعلى البحار (والبوصلة اختراع صيني لكن الصينيين اقتصرُوا في استخدامه على السير على اليابسة لا الملاحة البحرية)، كما رسموا

١. أحمد فؤاد باشا: التراث العلمى للحضارة الإسلامية، ص ١١١.

٢. رشيد الجميلي: حركة الترجمة، ص ٤٣٥.

٣. الجغرافيا البحرية: هى دراسة البحار وتجمع بين التطبيقات البحرية لعلوم الجغرافيا والجيولوجيا والكيمياء والأحياء، وتقتصر أحياناً على دراسة طبوغرافية ورواسب أحواض المحيطات وسواحلها وأهمية الملاحة والمصايد والدراسات المناخية وغيرها. إبراهيم المسلم: إطلالة على علوم الأوائل، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٦، ص ١٤٢.

خرائط ملاحية على درجة عالية من الدقة أتاحت للبشرية أن تدخل عهد ارتياد أعالي البحار^١.

ومن أشهر جغرافي مدينة غزة "البيروني" والذي اهتم بالكتابات الجغرافية، فقد كان يرى أن المؤرخ يجب أن يكون ملماً إلماماً تاماً بعلم الجغرافية، حيث يعتقد أنه لا ينجح مؤرخ في تسجيل التاريخ تسجيلًا علميًا إلا إذا كان عالمًا جغرافيًا. وقد كان للعالم الجغرافي الفارسي "هاستونو" الدور الكبير في تشجيعه على القيام بالرحلات الجغرافية إلى أماكن وبلدان مختلفة^٢.

يعد كتابه "صفة المعمورة" من أهم كتبه الجغرافية، لأنه أورد فيه ملخصاً نقدياً لكثير من المؤلفات الجغرافية المعروفة في عصره، ولم يكتف بحساب الأمكنة الجغرافية لعدة مدن، بل قام بحساب خطوط الطول ودوائر العرض، وبذلك أنجز إحدى العمليات المساحية وحقق بعض وجوه التقدم النظري بصفة عامة في الجغرافية الطبيعية والبشرية^٣.

وله أيضاً كتاب "تحقيق ما للهند" ونظرًا لأهمية هذا الكتاب فقد اعترف علماء الجغرافيا ودارسوها بتأثيره في تقدم هذا العلم وتطوره حتى أن بعضهم أطلق على البيروني بطليموس العرب، ويقدم البيروني في كتابه هذا معلومات قيمة عن الجغرافيا البشرية والوصفية والرياضية والفلكية، وتحدث بإسهاب عن الهند الجغرافية من حيث الجبال والأنهار والسيول والمناخ والتضاريس والأمطار...^٤، وقد قدم لنا تفسير علمي لسقوط الأمطار وفي ذلك يقول: "وأرض الهند تمطر مطر الحميم في الصيف.... وكلما كانت البقعة

١. محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية، ص ٣٢.

٢. محمد أبي الصلاح: البيروني يسيح في الهند، ص ٣٧.

٣. إبراهيم المسلم: المرجع نفسه، ص ١٤٨.

٤. أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية، ص ١١٨. عز الدين فراج: فضل علماء المسلمين

على الحضارة الأوروبية، ص ١١١

أشد إمعاناً في الشمال وغير محجوبه بجبل، فهذا المطر فيها أغزر ومدته أطول وأكثر.....^١.

كما تناول الجزر الشرقية الموجودة في شرق الهند وهى جزر الذهب والغربية جزر "الزنج" و"الديجات" وقام بتفسير نشأة تلك الجزر، ويقول في ذلك: "حيث أنها تنشأ فتظهر من البحر قطعة رملية لا تزال تعلو وتنسبط وتنمو حتى تستحكم وأخرى منها علي الأيام تضعف وتذبل وتذوب حتى تغوص وتبيد، فإذا أحسن أهلها بذلك طلبوا جديدة متزايدة الطراوة فنقلوا إليها النارجيل والنخيل والزرع وانتقلوا إليها....."^٢.

وفي كتابه "تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن" يعد البيرونى أول من تطرق إلى وضع حساب المثلثات الكروية في خدمة الجغرافية الرياضية، وهذا الكتاب يشتمل على أشكال حساب المثلثات الكروية بخط البيرونى^٣. وفي هذا الكتاب أشار إلى اتصال المحيط الهندى بالأطلنطى عندما وصف تضاريس الأرض ومسالك البحار والمحيطات، وتكلم لأول مرة على عكس ما كان شائعاً في ذلك الوقت من أنه ليس ما يمنع من اتصال المحيط الهندي بالمحيط الأطلنطي، ويعتبر كشفه عن ألواح سفينة عربية قبل زمنه بثمانمائة عام أساساً لاحتمال نظرى بوجود قنوات اتصال بينهما، ويبرهن على ذلك بقوله "أنه وجد في البحر المحيط بإزاء اتصال بحر الشام به ألواح مراكب محزوزة (أى مثبته بالحبال والخيوط) وإنما ذلك في بحر الهند لكثرة المغناطيس فيه دون بحر المغرب لأن المراكب به تسمر بالحديد ولا تخاط، ووجود ذلك فيه دليل وقوعه إليه من اتصال بينها"^٤.

^١ البيرونى: تحقيق ماللهند، ص ١٤٩.

^٢ المصدر السابق والصفحة، ص ١٤٩.

^٣ أيمن فؤاد السيد: الكتاب العربى المخطوط وعلم المخطوطات، ج ٢، ص ٣٩٤.

^٤ البيرونى: تحديد نهايات الأماكن، ص ١٤٤.

بيد أنه كان من العسير عليه تأكيد هذه النظرية بسبب ارتفاع المد والجزر والرياح الشديدة، وقرر أن يدور حول سواحل أفريقيا الجنوبية لكنه لم يتمكن من ذلك^١.

كذلك اهتم "البيروني" بتفسير الكثير من الظواهر الجيومورفولوجية (شكل الأرض وتضاريسها)، وأشار إلى ظاهري "انغمار اليابسة بمياه البحر" و "انحسار مياه البحر" سواء في العصور السابقة علي وجود البشرية أو بعد ذلك، وأشار بصفة خاصة إلى أن "شبه الجزيرة العربية" كان يغمرها البحر قبل أن ينحسر تاركاً آثاره في طبقات الأرض وما تحتويه من أحجار وأصداف^٢. وله كذلك كتاب "تهذيب الأقوال في تصحيح العروض والأطوال" وكتاب "إيضاح الأدلة علي كيفية سمت القبلة" ومقالة في تعيين البلد من العرض والطول. وقد استطاع تسجيل ما يزيد علي ستمائة بلد ومكان، وصحح ما وقع فيه الأقدمون من أخطاء حيث أنه لاحظ اختلافاً في اختيار مبدأ قياس خطوط الطول، فإن أهل الهند والصين وفارس بدأوا من جهة المشرق والمصريون القدماء والروم من جهة المغرب، ونتج عن ذلك أخطاء في كثير من النتائج تفادها البيروني في جداوله بمقارنة المسافات وفروق الأطوال الناتجة^٣.

أما بالنسبة للخرائط^٤، قام البيروني برسم العديد منها، وكتب رسالة لكي تكون الأساس النظري لصنع الخرائط الحديثة باسم "تسطيح الصور وتبطين الكور" وقد حدد فيها الأهداف العامة لصنع الخرائط وهي:.

^١ إبراهيم المسلم: إطلالة على علوم الأوائل، ص ١٤٨.

^٢ البيروني: تحديد نهايات الأماكن، ص ٤٣.

^٣ محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية، ص ١٥٧. أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية، ص ١١٨.

^٤ من الجدير بالذكر أن رسم مسقط الخريطة هو الشكل الناتج عن شبكة خطوط الطول والعرض التي ترسم على أساسها تلك الخريطة، والغرض من ذلك تمثيل سطح على الأرض على سطح مستو من الورق، وتكون المساقط تبعاً للأهداف التي يتوخاها واضع الخريطة، وأن تكون الاتجاهات والانحراف صحيحين كسمت القبلة التي توجه المحاريب في المساجد، وقد اختلف العلماء في وضع المساقط فالتباني

(١) معرفة صور الكواكب وهيئتها في علم الفلك والتنجيم

(٢) معرفة وضع الأشياء على سطح الأرض، حيث توضع عليها الجبال والبحار والأنهار والطرق وذلك لإرشاد الرحالة والمسافرين والحملات العسكرية

(٣) معرفة المناخ والزراعة^١

وفي كتابه "الآثار الباقية" وضع كيفية رسم الخرائط بأسلوب علمي دقيق، كما قام هو بعمل خريطة مستديرة للعالم في كتابه "التفهيم" لبيان موضع البحار وتحديد مواقعها بالنسبة لليابسة^٢.

خلاصة ما سبق أنه بينما كان العلماء في الغرب عاكفين خلف أسوار أديرتهم يبحثون عن علوم الأوائل في الكتب، كان العلماء والرحالة يجوبون الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً يبحثون ويدونون مشاهداتهم ويحددون بدقة متناهية المواقع الجغرافية للبلدان وأهميتها ونسبتها إلى خطوط الطول والعرض، مما كان له عظيم الأثر ليس على إثراء المكتبة العربية فحسب، وإنما بالمعلومات الدقيقة كما فعل البيروني حينما أعطى الجغرافيا الطبيعية والجيولوجية أمثلة صحيحة عن الجبال وطبقات الصخور أصبحت صالحة لكل زمان ومكان.

اعتمد علي المساقط السميتية في حين اتبع البيروني المساقط المخروطية. محمد عبد الحميد الحمد: حياة البيروني، ص ٢٢١.

^١ المرجع نفسه والصفحة.

^٢ بركات محمد مراد: البيروني فيلسوفاً، ص ١١٦.

رابعاً: علم الفلسفة^١

أظهر المفكرون المسلمون منذ الأيام الأولى شغفاً كبيراً باكتشاف وسبر أغوار الميراث الثقافي الذي وقعوا عليه في المناطق غير الإسلامية المفتوحة، فقد كانت هناك قبل كل شيء كنوز من الكتابات الفلسفية في تلك المناطق تمثل أسس النظم القديمة في الفكر، وأهمها ما وجد في الهند وبلاد فارس وفي التراث اليوناني القديم.

لذلك فإن الأساس الذي قامت عليه الفلسفة الإسلامية مأخوذ من اليونانية بعد تعديله ليوافق تعاليم الإسلام، وقد اعتبر المسلمون أن تعاليم أرسطوطاليس^٢ تمثل الفلسفة اليونانية، وقد اجتهد فلاسفة الإسلام في التوفيق بين الفلسفة اليونانية والدين الإسلامي، وكان بداية تفلسف المسلمين في مجال العقائد الإسلامية والأخلاق ثم الأحكام الشرعية ثم انتقل المسلمون من طور التفلسف الديني إلى طور التفلسف الخالص، ويمكننا أن نميز في الفكر الفلسفي الإسلامي بين نوعين من الفكر الفلسفي: في مجال الشرعيات، ويتجلى في العلوم الشرعية (علوم الكلام وأصول الفقه والتصوف)، والفكر الفلسفي الخالص الذي نجده عند فلاسفة الإسلام الخالص^٣.

^١ الفلسفة: مشتقة من الكلمة اليونانية فيلاسوفيا وتفسيرها محبة الحكمة، فلم عربت قيل فيلسوف ثم اشتقت الفلسفة منه، ومعنى الفلسفة علم حقائق الأشياء والعمل بها هو أصلح، أو كما عرفها كبار الفلاسفة أمثال الفارابي وابن سينا أنها البحث عن الموجود من حيث هو موجود بقدر الطاقة البشرية. (الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ١٣١. عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي، ص ١٩. عبدالله نعمة: فلاسفة الشيعة، بيروت، ١٩٣٠م، ص ١٧)

^٢ أرسطوطاليس (٣٨٤-٣٢٢ ق.م): هو أرسطوطاليس بن نيقوماخس بن ماخاون بن أسقليداس وهو الذي اخترع الطب لليونانيين ويقال أنه قد نظر في الفلسفة بعد أن أتى عليه من عمره ثلاثون سنة، وكان من أجل علماء اليونان في الفلسفة. رشيد الجميلي: حركة الترجمة، ص ٣٦.

^٣ أحمد رمضان أحمد: حضارة الدولة العباسية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية، ١٩٧٨م، ص ١٦٠.

تعتبر الفلسفة الخالصة طورًا ثانيًا من أطوار الفكر الفلسفي عند المسلمين والذي ساعد على ذلك حركة الترجمة، حيث لم يكن للمسلمين عهد بالفلسفة قبل ظهور الترجمات، فلما نقلت علوم اليونان إلى اللغة العربية واطلع عليها العلماء تأثروا بها، وانصرف فريق منهم إلى دراستها والتأليف فيها معتمدين على منطق أرسطو^١. ومفاخرين بأنهم فهموا المعلم الأول زاعمين وهم يشرحون أفلاطون^٢ أنهم شرحوا علم كبير الفلاسفة فبقى إنتاجهم يشف عن مصادره^٣. بذلك نرى أن الترجمة كان لها دورًا وتأثيرًا فعالًا وعميقًا في مجرى التفكير وفي خلق انقلاّبًا ثقافيًا في ذلك العصر تردد صداه في الشرق والغرب.

كما كان لظهور الفرق الإسلامية المختلفة الأثر الكبير في ازدهار ترجمة المصنفات الفلسفية اليونانية، حيث عملت كل فرقة على تدعيم آراءها وأفكارها والعمل على دحض آراء وأفكار الفرق الأخرى، الأمر الذي ترتب عليه شدة إقبال المسلمين على طلب الكتب الفلسفية، كذلك كانوا في دفاعهم عن الإسلام ضد اليهودية والنصرانية اللذين تسلحًا من قبل بالفلسفة اليونانية، فأحس المسلمون أنه لا بد من محاربتهم بآلاتهم فعكفوا على الفلسفة يستخدمونها في الدفاع عن عقيدتهم، وفيما هم كذلك شعروا بمتعة دراسة

١. أرسطو: هو المعلم الأول ولد في شال اليونان عام (٣٨٤ ق.م) وتوفي عام (٣٢٢ ق.م)، درس على أفلاطون ثم تركه كي يرعى الإسكندر الأكبر في طفولته وشبابه ثم عاد إلى أثينا بعد ذلك، وكان أرسطو قد عالج الفلسفة ولكنه ظل في قراره نفسه عالمًا تجريبيًا قوى الملاحظة خصوصًا في علوم البيولوجيا والطبيعات، وهو واضع أساس علم المنطق وبسببه لقب بالمعلم الأول. حسين مؤنس: موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، ص ١٤.

٢. أفلاطون (٤٢٧ ق.م: ٣٤٧ ق.م): ولد بأثينا وتتلذذ سنوات على سقراط ثم غادر أثينا بعد أن أجبر سقراط على الموت بالسّم، ثم عاد بعد ذلك، وقد اعتبر أفلاطون منذ أقدم العصور رمز الفيلسوف الحق، وكانت شهرته ذائعة وتعاليمه مقبولة في العالمين القديم والحديث. حسين مؤنس: المرجع نفسه والصفحة.

٣. عبده الشامي: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها، ص ٢٠٢. محمد عادل عبد العزيز: الحضارة الإسلامية، ص ٢٠٤.

الفلسفة، فبعد أن كانت تطلب على أنها وسيلة للدفاع عن الدين أصبحت غاية في نفسها تطلب لذاتها^١.

وخلال القرن الرابع الهجري عرفت الفلسفة نوعاً من الازدهار كان أوسع مما عرفته قبل ذلك، وربما يرجع السبب في ذلك لانتشار المناظرات، حيث كان النشاط الفلسفي في القرن الرابع الهجري يمارس أساساً في تلك الندوات العلمية بعيداً عن مجالس السلطة والسياسة^٢. كما كان انتشار المذهب الحنفي عاملاً من عوامل تقدم الفلسفة عند المسلمين، فهو مذهب يحكم العقل في المشكلات الدينية^٣.

وبالرغم من انتشار الفلسفة في تلك الفترة إلا أنه انتابها أزمة خطيرة في زمن السلطان "محمود" أوشكت أن تقضي عليها، فقد قام السلطان باضطهاد الفلاسفة في جميع أنحاء دولته وبدأ في تعقبهم وكان ذلك متمماً لسياسته في تعقب القرامطة، والدليل على ذلك قتله لـ "عبد الصمد الحكيم" أستاذ "البيروني" واتهامه بالقرمطة، لأنه كان مثقفاً ثقافة فلسفية حكيمية^٤. كذلك كانوا هدفاً لاضطهاد الفقهاء يكفرونهم، بل أن بعض الشعراء عد الفلسفة علماً معطلاً والفيلسوف ضالاً^٥ ومن هؤلاء "البستي" وقوله عن الفلسفة:.

^١. ريسلر: الحضارة العربية، ص ٢١٢. رشيد الجميلي: المرجع نفسه، ص ٥٧.

^٢. حسين الصديق: المناظرات في الأدب العربي الإسلامي، ص ١٣١.

^٣. مصطفى جواد: الثقافة العقلية والحال الاجتماعية في عصر الرئيس أبي علي بن سينا، ص ٥١١.

^٤. محمد محمدي: الأدب الفارسي، ص ١٦٣. علي الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، ص ٢٦٦.

^٥. قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام، ص ٦٧٩. (من المعروف أن الفلسفة جاءتنا عن اليونان ولم يكن لليونان عندما أورثونا فلسفتهم علم بالديانات، لهذا كان الإيذان اليقيني الثابت في القرون الوسطى يقوم دائماً على التوفيق بين الفلسفة والدين، أي بين التسليم بحقائق الوحي وحقائق العقل الفلسفي ولكن بعض علماء الدين ممن ضاق أفق تفكيرهم كانوا يزعمون أن البحث في الفلسفة وعلومها يؤدي إلى الإلحاد واتهموا جميع الفلاسفة بذلك، هؤلاء الفلاسفة أدركوا أن الحق واحد لأن الإيذان بحقائق الوحي الأمين مسألة يمكن التدليل عليها بالمنطق العقلي، وأنه لاخلاف بين الحق في نظر الدين، والحق في نظر الفلسفة، ولم يكن هناك تعارض في نظرهم بين الفلسفة وبين الحقائق الدينية التي جاءت بها التوراة

وبعدهما فاطلب الفلسفة

خف الله وأطلب هدى دينه

من الدين بالزور والفلسفة^١

لئلا يغرك قوم رضوا

ولكن مثل هذه الآراء لم تثن علماء الإسلام ومفكره عن العمل من أجل تقدم الفكر، فقد تعلموا ثم أضافوا إضافات باهرة، فكان أن فتحت الترجمة أمام العقل العربى والفارسى آفاق الحياة، وبفضلها نبغ علماء وفلاسفة كبار أثروا الفكر الإنسانى وكانوا بمثابة معلمى البشرية.

أما أهم سمات الفلسفة الإسلامية أن القاسم الأعظم منها كان عبارة عن تفسير فلسفة اليونان خاصةً فلسفة أرسطو وأفلاطون، كما تضمنت موضوعات من فلسفة الهند وإيران والتعاليم الإسلامية، علاوة على أن الفلسفة الإسلامية كانت دائماً خاضعة للتعاليم الإسلامية وهدفها إثبات وجود الله وإيجاد الطريق المؤدى إليه. ومن السمات الأخرى للفلسفة الإسلامية اهتمامها الخاص بالعلوم الطبيعية والكيمياء والطب، ويشكل الطب عنصراً مهماً في الفلسفة إلى درجة أنه يبدو كأنه جزء لا يتفصل عنها، ولهذا السبب نجد أن أعظم الفلاسفة المسلمين كانوا فلاسفة وأطباء في نفس الوقت^٢، كذلك كان لها تأثيراً ظاهراً في النثر والشعر فكانت الحكم الفلسفية قد عرفت إلى الشعر طريقاً ويظهر ذلك في الكثير من كتابات بعض الشعراء^٣.

تميزت الفلسفة أيضاً بأن موضوعها كان أوسع من موضوع الفلسفة اليوم، فقد كانت تشمل المنطق والطبيعات والكيميائيات والإلهيات والرياضيات والنفس والاجتماع،

والقرآن الكريم، وإذا كان ثمة خلاف أو تناقض بين الحقائق الدينية والحقائق الفلسفية فمرجع هذا التناقض هو سوء الفهم وعدم الإدراك الصحيح).

^١ الثعالبي: يتيمة الدهر، ج ٤، ص ٣٥٨.

^٢ مهرداد مهران: فلسفة الشرق، ترجمة محمود علاوى، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣م، ص ٤٣٦.

^٣ عبده الشالى: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها، ص ٢٩٠.

ولكن مع توالى العصور بدأت علوم كثيرة تنفصل عن الفلسفة وتستقل عنها بالمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع^١.

ومن أشهر فلاسفة غزة "ابن الخمار" والذي كان له مكانة متميزة في الفكر الفلسفي، حيث نالت الدراسات الفلسفية اهتمامًا خاصًا منه^٢، ويرى "ابن الخمار" أن الفلسفة نشأت عند اليونان عكس الفارابي الذي يرى أن الفلسفة نشأت في الحضارات الشرقية لدى البابليين أو الهنود أو المصريين القدماء ثم انتقلت إلى بلاد اليونان، وهو من أنصار أن هناك اهتمامًا ملحوظًا يبحث هذه المسألة على كافة المستويات. ولابن الخمار رسالة كتابها في مسألة العلاقة بين الدين والفلسفة وسماها "كتاب الوفاق بين رأى الفلاسفة والنصارى"^٣.

ومن أهم كتبه في الفلسفة:.

- (١) كتاب سيرة الفيلسوف
- (٢) كتاب اللبس في الكتب الأربعة في المنطق
- (٣) كتاب الصديق والصدقة
- (٤) كتاب في الأخلاق
- (٥) كتاب تدبير المشايخ
- (٦) مقالة في السعادة، مقالة في الإفصاح عن رأى القدماء في البارى تعالى وفي الشرائع^٤

^١. رشيد الجميل: حركة الترجمة، ص ١١٤.

^٢. استاذ خليل: سلطنت غزنويان، ص ٣٥١.

^٣. إبراهيم تركي: ابن الخمار فيلسوف من القرن الرابع الهجرى، ص ١٢٨، ١٣٥.

^٤. محمد فتحي عبد الله: مترجمو وشرح أرسطو عبر العصور، ص ١٧٢، ١٧٣.

بالإضافة إلى العديد من الكتب التي قام بترجمتها، وتكمن الأهمية هنا في كونها استطاعت أن تنقل مؤلفات أرسطو وأفلاطون عن طريق الترجمة العربية إلى أوروبا، كما مكنت الأوروبيين من الاطلاع على أعمال الفلاسفة المسلمين والخروج من ظلمة القرون الوسطى إلى عالم العلم والتقدم.

اهتم البيروني كذلك بعلم الفلسفة التي كشفت له غوامض كثيرة ".... فجعل لها حظاً من عنايته لأنه يعدها ظاهرة من ظواهر المدينة " وفي رأيه أن مطالب الحياة تستلزم إيجاد فلسفة عملية تساعد الإنسان في تصريف الأمور وتميز الخير من الشر والعدو من الصديق"^١.

ولا ريب فإن عالماً كالبيروني يرحل عدة مرات إلى الهند ويقوم في هذه البلاد سنوات طويلة، يدرس خلالها لغة أهل البلاد دراسة علمية عميقة، لقادر على أن يتمكن من دراسة علوم الهند وأديانها ونحلهم المختلفة وتاريخهم، وقد اكتسبته هذه الدراسات شهرة في تاريخ المشرق باعتباره العالم الفذ الذي ترجم إلى اللغة العربية الثقافة الهندية ترجمة دقيقة، ومما ينفرد به بين علماء وفلاسفة المسلمين أنه يكاد يكون العالم الوحيد الذي درس الفلسفة بلغة أهلها أما غيره من العلماء فقد درسوها مترجمة إلى اللغة العربية.

نقل البيروني إلى العربية من الآثار الفلسفية الهندية كتاب "سنك" في المبادئ وصفة الموجودات^٢. وألف في كليات المسائل العلمية "مقالة في أسباب السخونة الموجودة في العالم واختلاف فصول السنة"^٣. وكان بتعرفه الدقيق على أصول الحكمة الهندية مباشرة في وطنها وبلغتها وعلى أيدي أساتذتها الكبار أقدر عالم استطاع أن يودع هذه النفائس العلمية كتبه القيمة.

^١- البيروني: تحقيق ما للهند، ص ١٨. قدرى طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ٣١٤.

^٢- البيروني: تحقيق ما للهند، ص ١٨.

^٣- البيروني: الآثار الباقية، ص ٤٤. التوانسي: أبو الريحان البيروني، ص ٣٩.

وللبيروني محادثات و مراسلات قيمة مع ابن سينا^١، تشهد تلك المراسلات أنه كان فيلسوفاً متمكناً حيث أجرى فيها مقارنات بين المذاهب الفلسفية والصوفية عند الهنود والمسيحيين والمسلمين، وقد اختصم الرجلان ولكن يبدو أن الخصومة كانت سياسية أكثر منها خصومة علمية^٢.

كان البيروني في فلسفته يدعوا لكرامة الإنسان وإلى تطوره العقلي عن طريق المعرفة الحسية، لأن العقل الإنساني فيه مقولات فطرية كامنة كالسبية والزمان والمكان، وظلت غاية الفلسفة عنده الخلاص الإنساني للتواصل إلى السعادة العظمى بالإتحاد بالباري سبحانه^٣، وقد كان البيروني في فلسفته أبيقوريا يفضل اللذات العقلية علي اللذات الحسية، من أجل هذا أعجب بفلسفة ماني (٢١٦ . ٢٧٦م) الذي دعا إلى عدم الحرص على اقتناء المال والابتعاد عن الشهوات ونكاح النساء والزهد في الدنيا، وبعد أن تعرف على المانية عن قرب وعرف مبادئهم ابتعد عنهم واستمر إعجابه بأبيقور، كما كان يرجع كثيراً إلى كتاب "محاورة فيدون" لأفلاطون في تأكيده علي التناسخ والحشر والمعاد معتمداً على أسلوب التمويه عن طريق ذكر الحكاية، وذلك لأنه كتب كتبه في وسط سنى متعصب^٤.

وبالاطلاع علي كتابه تحقيق ما للهند سوف نلاحظ ميل البيروني إلي الفلسفة وتركيزه علي العقائد، ولعل ذلك ربما يرجع إلي غلبة التفلسف والتأمل علي معظم أهل الهند وقوة الاعتقاد في نفوسهم، وسيطرة الفكر علي سلوكهم، ولا يكاد يصدر من أى شخص سلوك

١. ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٣، ص ٣٠. ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران، جلد أول، ص ٣٤٢. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٧٨.

٢. جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨٧، ص ٩٨. فتح الله خليف: فلاسفة الإسلام، دار الجامعات المصرية، ١٩٧٦م، ص ١٢. بركات مراد: البيروني فيلوسفاً، ص ٢٥.

٣. محمد عبد الحميد الحمد: حياة البيروني، ص ٢٧٩.

٤. المرجع نفسه، ص ٣٧، ٢٣٦.

ما إلا وهو نابع من فكرة أو فلسفة أو اعتقاد أو اتباع لدعوة دينية، وهم يقدررون الرأى الدينى ويحترمون الفكر ويسرفون فى الالتزام به^١.

ومما سبق يتبين أن البيرونى لم يتخذ الفلسفة هدفاً لبحوثه، ولم ينتمى لأي مدرسة من المدارس الفلسفية القائمة فى ذلك العصر، ولكن اتخذ الفلسفة وسيلة للوصول إلى الحقائق التى ينشدها من مختلف العلوم التى تخصص فيها.

هكذا تمكن الفلاسفة المسلمون بناءً على ما أضر لهم من تراث قديم أن يكونوا لأنفسهم فلسفة خاصة بهم تنسجم وروح دينهم، حتى أصبحوا مستقلين فى ذلك تماماً بفضل جهود الفلاسفة المسلمين فهم الذين طبعوا الفلسفة الإسلامية بطابعها الجديد الخاص بها.

الخلاصة أنه فى هذا الجو العلمى نشأ عدد من العلماء يعتبرون من أعظم العلماء فى أى عصر، كانت اللغة العربية لغتهم التى يكتبون بها، كما أنهم استحقوا ثناء الأمة لأنهم وضعوا قواعد اللغة والأدب والتاريخ والشعر والنثر، والذى قاد الكثير من العلماء من بعدهم إلى البحث والتنقيب، وبالنسبة للأدب الفارسى فلم يمض زمن طويل حتى بلغت اللغة الفارسية أوج ازدهارها، وظهر فى تلك الحقبة مئات من الشعراء والكتاب والعلماء خلفوا آثاراً رائعة فى تلك اللغة، يكفى أن نذكر منهم فى الشعر العنصرى، الفرخى، المنوجهرى، الفردوسى. وفى النثر البيرونى، الكرديزى، البيهقى، عنصر المعالى وغيرهم.

^١. فؤاد قنديل: أدب الرحلة فى التراث العربى، ص ٣٠١.